

« قدس الله روحه »

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم « رحمه الله »

وساعده ابنه محمد « وفقه الله »

ـ المجلد الثالث عشر ـ

طبع بأمر

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

تحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيميه ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه .

٤٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٣٣-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٣)

١ - الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٤ ١٥/٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٣٣-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٣)

كتاب

مُقَدِّمَةُ التَّفْسِيرِ



قال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية قدس الله روحه

فيما صنفه بقلعة دمشق أخيراً :ــ



الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

فصـــــل

في الفرقان بين الحق والباطل[1]

وأن الله بين ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعـد عن اتبـاع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليـه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبيء الـكاذب ، وآيات النبيـين بشبهات الـكذابـين ، حـتى اشتبه عليهـم الخالق بالمخلوق .

فإن الله سبحانه وتعـالى بعث محمداً بالهـدى ودين الحق ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشـاد والغي ، والصدق والكذب ، والعلـم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعـداء الله الأشقياء :

---

(١) تسمى : رسالة الفرقان بين الحق والباطل .

وبين ما عليه الناس من الاختلاف، وكذلك النبيون قبله، قال الله تعالى:

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقال تعالى: (تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وقال سبحانه وتعالى: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا)

وقال تعالى: (الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ).

قال جماهير المفسرين: هو القرآن. روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع بن أنس قال: هو الفرقان فرق بين الحق والباطل. قال: وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله: (وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ) قال: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد، ففرق به بين الحق والباطل، وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحد

حدوده ، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته . وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى : (وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ) قال : هو كتاب بحق .

و « الفرقان » مصدر فرق فرقانا مثل الرجحان ، والكفران ، والخسران ، وكذلك « القرآن » هو فى الأصل مصدر قرأ قرآنا ، ومنه قوله : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) ويسمى الكلام المقروء نفسه « قرآنا » وهو كثير كما فى قوله : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليما ، وتكلم تكلما ، ويراد به الكلام نفسه ؛ وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفا هو نفس التكلم ، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ؛ ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعا من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسيما له إذا أريد ما يتكلم به ، وهو يتناول هذا وهذا . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

و المقصود هنا أن لفظ « الفرقان » إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل فى الكتاب ، فإن فى الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً ، فهما في المعنى سواء ، وإن أريد

بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل ، فإنه جعل فى القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن ، كما جعل فيها الإيمان والعدل ، وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل ، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان يفسر بالفرق ، ويفسر بما يحصل به الفرق ، وهما متلازمان ؛ فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق ، ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى ، سمي كتابا باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمى فرقانا باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمى هدى باعتبار أنه يهدي إلى الحق ، وشفاء باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء « الرسول » كالمقفى ، والماحي ، والحاشر . وكذلك « أسماء الله الحسنى » كالرحمن ، والرحيم ، والملك ، والحكيم ، ونحو ذلك .

والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات ، وإن كان المسمى واحداً كقوله : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ)
وقوله : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) ونحو ذلك .

وهنا ذكر أنه نزل الكتاب ، فإنه نزله متفرقا ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر أنه أنزل الفرقان ، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان فى القلوب ، وأنزل الميزان ، والإيمان . و « الميزان » مما يحصل به الفرقان أيضاً ، كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان ، ونظير هذا قوله : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا) قيل : الفرقان هو التوراة ، وقيل هو الحكم بنصره على فرعون ، كما فى قوله : (إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ) .

وكذلك قوله : (قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ) قيل : « النور » هو محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو الإسلام . وقوله : (قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) قيل : « البرهان » هو محمد ، وقيل هو الحجة والدليل . وقيل : القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التى بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم . وهنا قال : (وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ) جاء بلفظ الإنزال ؛ فلهذا شاع بينهم أن القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء .

وهـذا كقوله فى القرآ ن فى قوله : (إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)
قال الوالبي عن ابن عباس (يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ) يوم بدر ، فرق الله فيـه بين الحق والباطل .

قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك؛ وبذلك فسر أكثرهم (إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) كما فى قوله : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا)
أي : من كل ما ضاق على الناس ، قال الوالبي عن ابن عباس فى قوله : (إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) أي مخرجا ، قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى ومقـاتل ابن حيان كذلك ، غير أن مجاهـداً قال مخرجا فى الدنيا والآخرة ، وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً ، قال : وفي آخر قول ابن عباس والسدى نجاة .

وعـن عروة بن الزبير (يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) أي : فصلا بين الحق والباطل ، يظهر الله به حقكم ويطفيء به باطـل من خالفـكم ، وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال مخرجا في الدنيا من الشبهات ، لـكن قد يكون هـذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيـان ، كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، والضحاك وابن

قتيبة : أنهم قالوا هو المخرج . ثم قال : والمعنى يجعل لكم مخرجا في الدنيا من الضلال ، وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا) والفرقان المذكور في قوله : (وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ)

وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان ، والنصر والنجاة هما نوعا « الظهور » في قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) يظهره بالبيان والحجة والبرهان ، ويظهر باليد والعز والسنان .

وكذلك « السلطان » في قوله : (وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا) فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله : (أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ) وقوله : (ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ) وقوله : (إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ)

وقد فسر « السلطان » بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحجة والبيان فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله : (وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث ، أحل هذا وحرم هذا .

ومن « الفرقان » أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات ، وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات ، قال تعالى :(أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

وقال تعالى : (مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

وقال تعالى :(أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)

وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

وقال تعالى : (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) وقال تعالى : (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ) فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول ، والمعصية لله والرسول ، كما بين الفرق بين ما أمر به وبين مانهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق فى شيء ، فيجعل المخلوق نداً للخالق ، قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال تعالى : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا) (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) وضرب الأمثال فى القرآن على من لم يفرق ؛ بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه ؛ كما قالوا — وهم في النار يصطرخون فيها — : (تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) .

فهو سبحانه الخالق العليم ، الحق الحي الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئاً ، كما قال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا

وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) .

وهذا مثل ضربه الله ؛ فإن الذباب من أصغر الموجودات ، وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذبابا ، ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز :

و « المثل » هو الأصل والنظير المشبه به ، كما قال : (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) أي لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم ، وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا ، فضربوه مثلا لآلهتهم ، وجعلوا يصدون أي يضجون ويعجبون منه احتجاجا به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر ، كما بينه فى قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) وقال في فرعون : (فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ) أي مثلا يعتبر به ويقاس عليه غيره ، فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزائه ؛ ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ) وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية ، التى يعتبر

بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة ، كما قال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ) فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم ، وعلم ان الله يسعده في الدنيا والآخرة ، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم ، وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والآخرة ، كما قال في حق هؤلاء : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ) وقد قال : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)

وقال فى حق المؤمنين : (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)

وقال : (وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقال فى قصة أيوب : (رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ) (رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ)

وقال : (أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) وقال : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) وقال : (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ) .

فلفظ « المثل » يراد به النظير الذي يقاس عليه ويعتبر به ، ويراد

به مجموع القياس ، قال سبحانه : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ) أي لا أحد يحييها وهي رميم . فمثل الخالق بالمخلوق فى هذا النفي ، فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحيائها ، سواء نظمه فى قياس تمثيل أو قياس شمول ، كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ، وبين أن معنى القياسين قياس الشمول وقياس التمثيل [واحد] — والمثل المضروب المذكور فى القرآن — فإذا قلت : النبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام » فهو كقوله صلى الله عليه وسلم قياسا على الخمر ؛ لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسكار ، وهو موجود فى النبيذ . فقوله : (ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ) جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلا ونظيراً يعتبر به ، فإذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعته فلا يقدرون على خلق ما سواه ، فيعلم بها من عظمة الخالق وأن كل ما يعبدون من دون الله فى السماء والأرض لا يقدرون على ماهو أصغر مخلوقاته . وقد قيل : إنهم جعلوا آلهتهم مثلا لله فاستمعوا لذكرها ؛ وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل .

ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ، ويجعل له نداً ومثلا كقوله : (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ * قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ) .

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك ، فقال : (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ) وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق ، وهذا من تكذيبهم إياه ، ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله فى كل شيء ، بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم ، وهم مخلوقون مملوكون له . ولكن كانوا يسوون بينه وبينها فى المحبة والتعظيم ، والدعاء والعبادة ، والنذر لها ونحو ذلك مما يخص به الرب ،

فمن عدل بالله غيره فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك ؛ بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفا من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

فصل

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة ، فيحكم فى الشيء خلقا وأمراً بحكم مثله ، لا يفرق بين متماثلين ، ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين ؛ بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما .

ولفظ « الاختلاف » فى القرآن يراد به التضاد والتعارض ؛ لا يراد به مجرد عدم التماثل — كما هو اصطلاح كثير من النظار — ومنه قوله : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا) وقوله : (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) وقوله : (وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ) .

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير

موضع ، و « السنة » هي العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثانى مثل ما فعل بنظيره الأول ؛ ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار ، وقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) .

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه ، كما قال ابن عباس : هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان ؟ فإذا قال : (فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ) وقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم ؛ ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ؛ وليرغب فى أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء ، قال تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) وقال تعالى : (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) وقال تعالى : (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا)

وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب ، وظهور الإسلام ، وذل المنافقين فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك ، قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها ، فأخفوا النفاق وكتموه ؛ فلهذا لم

يقتلهم النبي صلى الله عليـه وسلم .

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة . ويقول : إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية ؛ بقوله : (مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا) قال قتادة : ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق ؛ فأوعدهم الله بهذه الآية ، فلما أوعـدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ) يقول : هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق . قال مقاتل ابن حيان : قوله : (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ) يعني كما قتل أهـل بدر وأسروا فذلك قوله : (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ) .

قال السدي : كان النفاق على « ثلاثة أوجه » :

« نفاق » مثل نفاق عبـد الله بن أبي ، وعبـد الله بن نفيل ، ومالك بن داعس ، فكان هؤلاء وجوهـاً من وجوه الأنصار ، فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بـذلك أنفسهـم . (وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) قال : الزناة . إن وجدوه عمـلوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه .

و « نفاق » يكابرون النساء مكابرة . وهم هؤلاء الذين يجلسون

على الطريق ، ثم قال : (مَّلۡعُونِينَ) ثم فصلت الآية (أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ) يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدي : هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ؛ أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . قال السدي : قوله : (سُنَّةَ) كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم . قال : فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت : هذا على وجهين :

« أحدهما » أن يقتل دفعاً لصوله عنها ، مثل أن يقهرها فهذا دخل فى قوله : « من قتل دون حرمته فهو شهيد » وهذه لها أن تدفعه بالقتل ؛ لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل ، وفيه قضيتان عن عمر وعلي معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرها ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان : « أحدهما » أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال ، وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا . قال السدي قد قاله غيره . وذكر أبو اللوبي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين .

و « الثاني » أن لا يكونوا ذوي شوكة ، بل يفعلون ذلك غيلة

واحتيالا ، حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها فهذا المحارب غيلة كما قال السدي . يقتل أيضاً وإن كانوا جماعة فى المصر ، فهم كالمحاربين في المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

و « المقصود » أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول ، وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي ، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ؛ ولهذا قال : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ) ؟ وقال : (ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ) أي أشباههم ونظراءهم ، وقال : (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ) قرن النظير بنظيره ، وقال تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم) وقال : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا)

وقال : (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) .

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة ، وقد قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ) وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) وقال تعالى :

(وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد ، كما ثبت فى الصحاح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

ولهذا كان معرفة أقوالهم فى العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم فى جميع علوم الدين وأعماله ، كالتفسير وأصول الدين ، وفروعه ، والزهد ، والعبادة ، والأخلاق ، والجهاد ، وغير ذلك ؛ فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم ، فيمكن طلب الحق فى بعض أقاويلهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه ، قال تعالى : (أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ، ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم ، بل هم فى كثير مما يتكلمون به فى العلم ويعملون به ، لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين فى ذلك ، من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف . فهؤلاء تجد عمدتهم فى كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونه من الإجماع ، وهم لا يعرفون فى ذلك أقوال السلف ألبتة ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين ؛ طائفة أو طائفتين أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير فى « مسائل أصول الدين وفروعه » كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحكون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك ألبتة ؛ بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم ، كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ؛ مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك .

وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ، فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به ؛ لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع

بإجماعهم فى مسائل النزاع بخلاف السلف فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً .

وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التى يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعا ؛ لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع فى الإسلام ، مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة ، المعلومة وإجماع الصحابة .

بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فإنه لا يمكن أن يقال : إنه خلاف الإجماع وإنما يرد بالنص ، وإذا قيل : قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع . فمثل هذا مبني على مقدمتين :

« إحداها » العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر . وهذا متعذر .

« الثانية » أن مثل هذا هل يرفع النزاع [1] مشهور فنزاع السلف

---

(١) بياض بالأصل .

يمكن القول به إذا كان معه حجة؛ إذ [١] على خلافه ، ونزاع المتأخرين لا يمكن [١] لأن كثيراً منه قد تقدم الإجماع عـلى خلافه ؛ كما دلت النصوص على خلافه ، ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً .

و « أيضاً » فلم يبق مسألة فى الدين إلا وقد تكلم فيهـا السلف فلابد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه ، وقد بسطنا في غير هذا الموضع أن الصواب فى أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا فى جميع علوم الدين ؛ ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم .

فصـــــل

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره مـن جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي صلى الله عليـه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهـل اللغة ولا غيرهم ؛ ولهذا

---

(١) بياضات بالأصل

قال الفقهاء « الأسماء ثلاثة أنواع » نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله (وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ)

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتى هي أقوم : فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ، ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

فكان القرآن هو الإمام الذى يقتدى به ؛ ولهذا لا يوجد فى

كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقيـاس ، ولا بذوق ووجـــد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض فى هـذا العقل والنقل ، فضلا عــن أن يقول : فيجب تقديم العقل . والنقل ـــ يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين ـــ إما أن يفوض وإما أن يؤول . ولا فيهم من يقول : إن له ذوقا أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ؛ فضلا عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته . أو يقــول : الولي أفضل من النبي ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد فى المسلمين . وإنما يعرف مثل هذه إما عن ملاحدة اليهود أو النصارى ، فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي ، كما قد يقوله فى الحواريين فإنهم عندهم رسل ، وهم يقولون : أفضـــل من داود وسليمان ؛ بل ومن إبراهيم وموسى وإن سموهم أنبيــاء ، إلى أمثال هذه الأمور .

ولم يكن السلف يقبلون معـارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرهـا وتنسخها ؛ أو بسنة الرسول صلى الله عليــه وســلم تفسرها . فإن سنة رسول الله صــلى الله عليــه وســلم تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه وكانوا يسمون مـــا عارض الآية ناسخا لهـــا . فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية عــلى معنى باطــل ، وإن كان ذلك المعنى لم

يرد بها ، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية ؛ بل قــد لايفهم منها وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلــك الإبهام والإفهــام نسخا ، [و] هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم .

وأصل ذلك [مــن إلقاء] الشيطــان ، ثم يحــكم الله آياته ، فما ألقاه الشيطان فى الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يــدل عليه ، سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخا ، كما سموا قوله : (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ) ناسخاً لقوله : (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ) وقوله : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ناسخاً لقوله : (وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ) وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لا رأي ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

وكانت البدع الأولى مثل « بدعة الخوارج » إنما هي من سوء فهمهم للقرآن ، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليــه ، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب ؛ إذ كان المؤمن هو البر التقي . قالوا : فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد فى النــار . ثم قالوا : وعثمان

وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله ، فكانت بدعتهم لها مقدمتان .

« الواحدة » أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر .

« والثانية » أن عثمان وعليا ومن والاهما كانوا كذلك ؛ ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم . قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ؛ ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن والإعراض عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين ، كالجهمية ؟! ثم « الشيعة » لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين ؛ بل كان غرضه فاسداً ، وقد قيل إنه كان منافقاً زنديقاً ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكذيب الأحاديث الصحيحة ؛ ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم ، بخلاف الخوارج فإنه لايعرف فيهم من يكذب .

(والشيعة) لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ؛ ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح ، فلا يروى البخاري ومسلم أحاديث علي إلا عن أهل بيته كأولاده ، مثل الحسن ، والحسين ومثل محمد بن الحنفية ، وكاتبه عبيد الله بن أبى رافع ، أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم ، مثل عبيدة السلماني ، والحارث التيمي ، وقيس بن عباد وأمثالهم ؛ إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن علي ؛ فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

وهاتان الطائفتان « الخوارج والشيعة » حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وفارقوه ، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين ، وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد ، إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن خباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ؛ فعلم علي أنهم الطائفة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه

وسلم حيث قال : « يحقر أحـدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامـه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجـاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » وفى رواية : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد فسجد لله شكراً .

وحدث فى أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم ، لا يظهرونه لعلي وشيعته ؛ بل كانوا ثلاث طوائف :

« طائفة » تقول : إنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار ، وخدلهم أخاديد عند باب مسجد بنى كندة وقيل إنه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد روى البخاري فى صحيحه عن ابن عباس قال : أتى علي بزنادقة فحرقهم بالنـار ، ولو كنت أنا لم أحرقهم ؛ لنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه »

وهذا الذي قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء ، وقد روى أنه أجلهم ثلاثاً .

والثانية « السابة » وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه . قيل : إنه طلبه ليقتله فهرب منه .

والثالثة « المفضلة » الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أبو بكر . قال : ثم من ؟ قال : عمر . وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون فى تفضيل أبى بكر وعمر ، وإنما كان النزاع فى علي وعثمان ؛ ولهذا قال شريك بن عبد الله : إن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر . فقيل له تقول هذا وأنت من الشيعة ؟ فقال : كل الشيعة كانوا على هذا . وهو الذي قال هذا على أعواد منبره أفنكذبه فيما قال ؟ ولهذا قال سفيان الثوري : من فضل عليا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل وهو كذلك . رواه أبو داود في سننه ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح ابن حي ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم فى ذلك الزمان جماعة ولا إمام ، ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ؛ وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهم ، ولكن الفساد الظاهر كان فى الخوارج : من سفك الدماء ، وأخذ الأموال ، والخروج بالسيف ؛ فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث فى ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً ، وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية ، وعذاب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث فى ذم القدرية والمرجئة : روى بعضها أهل السنن ، كأبي داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

وأما لفظ (الرافضة) فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام ، لما خرج زيد بن علي بن الحسين فى أوائل المائة الثانية فى خلافة هشام بن

عبد الملك ، واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمـــر فتولاهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم فقال : رفضتموني رفضتمونى فسموا الرافضة . فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي والزيدية يتولون زيداً وينسبون إليه ، ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى زيدية ورافضة إمامية .

ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت « القدرية » وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله ، والإيمان بأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله، وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ؛ لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا عــلم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابة أنـكروا إنكارا عظيما وتبرؤوا منهم ، حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أنى برىء منهــم وأنهم منى برءآء ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، وذكر عن أبيه حديث جبريل وهــذا أول حديث فى صحيح مسلم ، وقد أخرجه البخاري ومســلم من طريق أبى هريرة أيضاً مختصراً .

ثم كثر الخوض فى « القدر » وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام

وبعضه في المدينة ، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس فى « الإرادة » و « خلق أفعال العباد » فصاروا فى ذلك حزبين :

« النفاة » يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد .

وقابلهم الخائضون فى القدر من « المجبرة » مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له ألبتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهم مع ذلك ينفى الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه قال لا يسمى الله شيئا ، ولا غير ذلك من الأسماء التى تسمى بها العباد إلا القادر فقط ؛ لأن العبد ليس بقادر .

وكانت « الخوارج » قد تكلموا فى تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة ، وقالوا : إنهم كفار مخلدون فى النار ، فخاض الناس في ذلك ، وخاض فى ذلك القدرية بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ؛ بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون فى النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفاراً ، واعتزلوا

حلقة أصحاب الحسن البصري ، مثل قتادة وأيوب السختيانى وأمثالهما .

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن . وقيل : إن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس فى « الأسماء والأحكام » أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ومؤمن ، وكافر وفاسق ، وفى أحكام هؤلاء فى الدنيا والآخرة ، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم فى الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم ما استحلته الخوارج ، وفى الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التى انفردوا بها ، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

وحدثت « المرجئة » وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله ، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان ، وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم ؛ إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول ، مثل حماد ابن أبى سليمان ، وأبى حنيفة وغيرهما ، هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم بالشفاعة ، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد فى الإيمان

أن يتكلم بلسانه . وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب ، فكان فى الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك ، عامته نزاع لفظي ؛ فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون شعبة ــ أو بضع وسبعون شعبة ــ أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وإذا عطف عليه العمل كقوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) فقد ذكر مقيداً بالعطف ، فهنا قد يقال : الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام ، وقد يقال : لم تدخل فيه ولكن مع العطف كما فى اسم الفقير والمسكين ــ إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان كما فى آية الصدقات ، كقوله : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ) وكما فى آية الكفارة ، كقوله : (فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ) وفى قوله : (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) فالفقير والمسكين شيء واحد .

وهذا التفصيل فى الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف وفى الإثم والعدوان والمنكر ، تختلف دلالتها فى الإفراد والاقتران لمن تدبر القرآن ، وقد بسط هذا بسطاً كبيراً في الكلام على الإيمان ، وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب ؛ وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله، كما فى

المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب » وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » فإذا كان الإيمان فى القلب فقد صلح القلب . فيجب أن يصلح سائر الجسد ؛ فلذلك هو ثمرة ما فى القلب ؛ فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الإيمان . وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

وفى « الجملة » الذين رموا بالإرجاء من الأكابر ، مثل طلق بن حبيب ، وإبراهيم التيمي ونحوهما : كان إرجاؤهم من هذا النوع ، وكانوا أيضا لا يستثنون فى الإيمان ، وكانوا يقولون : الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأنا مصدقون ، ويرون الاستثناء شكا ، وكان عبد الله ابن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روى في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال ؛ لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث ، وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال :

قول أنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعا .

وقول أن الاستثناء محظور . فإنه يقتضي الشك فى الإيمان .

والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار ، وتركه باعتبار ؛ فإذا كان مقصوده أنى لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب الله علي ، وأنه يقبل أعمالي ، ليس مقصوده الشك فيما في قلبه فهذا استثناؤه حسن وقصده أن لا يزكي نفسه ، وأن لا يقطع بأنه عمل عملا كما أمر فقبل منه ، والذنوب كثيرة ، والنفاق مخوف على عامة الناس .

قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لا يقول واحد منهم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والبخاري فى أول صحيحه بوب أبوابا في « الإيمان والرد على المرجئة » وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة ، قال : وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل ـــ قال محمد : لأنهم أفضل يقينا ـــ أو إيماني كإيمان جبريل ، أو إيماني كإيمان أبي بكر ، أو كإيمان هذا ، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض، ولا اجتناب المحارم ؛ بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط ؛ لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده ، كما قالوا في قوله : أنت طالق إن شاء الله . فإذا علق الإيمان

بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عنـد حصول الشرط . قالوا : وشرط المشيئـة الذي يترجاه القـائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعـل على التصديق والإقرار فقـد ظهرت المشيئة وصح العقد ، فلا معنى للاستثناء ؛ ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الـكلام ، فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمنا ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق ، وذلك يزيله .

« قلت » : فتعليلهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة ، كالذي يريد الدخول فى الإسـلام ، فيقال له : آمن . فيقول : أنا أو من إن شاء الله ، أو آمنت إن شـاء ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله ، وأشهد إن شاء الله أن محمـداً رسـول الله ، والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا فى الإنشاء ، وإنمـا كان استثناؤهم فى إخباره عما قد حصل له من الإيمان ، فاستثنوا إما أن الإيمان المطلق يقتضي دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة ، كأنه إذا قيل للرجل : أنت مؤمن . قيـل له : أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول : أنا كذلك إن شاء الله . أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب .

ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له أنت مؤمن : آمنت بالله وملائكته وكتبه ، فيجزم بهذا ولا يعلقه ، أو يقول : إن كنت تريـد

الإيمان الذي يعصم دمي ومالى فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الإنشاء فلم يستثن فيه أحد ، ولا شرع الاستثناء فيه ؛ بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزما بلا تعليق .

فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظياً ، فإن الذي حرمه هؤلاء غير الذي استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما فى قلبه من الحال ، وهذا حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة ، ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الإيمان ، فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك .

والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى فى الإسلام . وهو المشهور عن أحمد رضي الله عنه . وقد روى عنه فيه الاستثناء ، كما قد بسط هذا فى شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التى فى الكتاب والسنة .

ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله : ففيه نزاع مشهور ، وقد رجحنا التفصيل ، وهو أن الكلام يراد به شيئان ، يراد به إيقاع الطلاق تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ . فقوله : إن شاء الله مثل قوله بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع وإن كان قد علق لئلا يقع ، أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن تطلق .

وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه ، من ولي أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن . وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومن بعد ذلك فهذا لم يصر مؤمناً ، مثل الذي يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام فقال أصير إن شاء الله فهذا لم يسلم ، بل هو باق على الكفر . وإن كان قصده أني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل

هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ فى الإنشـاء ، وأيضاً فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقـدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فأخبر أنهم آمنوا فوقع الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثني أحد من السلف قط فى مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمـن كما يخبر عن نفسه بأنه بر ، تقي ، فقول القائل له : أنت مؤمن هو عندهم كقوله : هل أنت بر تقي ؟ فإذا قال : أنا بر تقي فقد زكى نفسه . فيقول : إن شاء الله ، وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمـان التام يتعقبه قبول الله له ، وجزاؤه عليه ، وكتابة الملك له ، فالاستثنـاء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ؛ فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ؛ بل يقـال : هذا حاصل بمشيئة الله وفضـله وإحسانه ، وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شـاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق .

والرجل قد يقول : والله ليكونن كذا إن شـاء الله وهو جازم بأنه يكون فالمعلق هو الفعـل ، كقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمي لأفعلن كذا إن شاء الله وهو لا يجزم بأنه يقع ، لكن يرجوه فيقول : يكون إن شاء الله ، ثم عزمه عليه قد يـكون جازماً ، ولكن لا يجـزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم ، فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواماً فى مثل ذلك ؛ ولهـذا لم يحنث المطلق المعلق وحرف « إن » لا يبقى العزم ، فلا بد إذا دخل عـلى الماضي صار مستقبلا ، تقول : إن جاء زيد كان كذلك ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ وإذا أريد الماضي دخل حرف « إن » كقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ فيفرق بـين قوله : أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله إن كان الله شاء إيماني .

وكذلك إذا كان مقصوده أني لا أعلم بماذا يختم لي ، كما قيل لابن مسعود : إن فلاناً يشهد أنه مؤمن . قال : فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان ، وكذلك إن كان مقصوده أن إيماني حاصل بمشيئة الله .

ومن لم يستثن قال أنا لا أشك فى إيمان قلبى ، فلا جناح عليه إذا

لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله . وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة ، كما كان مسعر بن كدام يقول أنا لا أشك في إيماني ، قال أحمد : ولم يكن من المرجئة ، فإن المرجئة الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ، وهو كان يقول : هي من الإيمان ، لكن أنا لا أشك في إيماني .

وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة : ألا تنهاه عن هذا فإنهم من قبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع فى هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة فى كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

« وأما جهم » فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب ، وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ؛ بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه ؛ ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره ، واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم فى « الإيمان ».

والأصل الذي منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع ، كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء ، كما كان « أصل القدر » عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين . قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقينا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ؛ لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون فى العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين فى النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء .

وقالت « المرجئة » ــ مقتصدتهم وغلاتهم كالجهمية ــ قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون فى النار ؛ بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث . وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ؛ فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ؛ وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم فى أحكامهم فى الدنيا .

و « الخوارج » لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ، ولا يرون للسرقة

نصابا ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

و « أقوال الخوارج » إنما عرفناها من نقل النـــاس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة، والزيدية والكرامية والأشعرية ، والسالمية ، وأهل المذاهب الأربعة ، والظاهرية، ومذاهب أهل الحديث ، والفلاسفة ، والصوفية ، ونحو هؤلاء .

وقد بسط الـكلام علي تفصيل القول في أقوال هؤلاء فى غـــير هذا الموضع .

وإن الناس فى ترتيب أهل الأهواء على « أقسام » :

منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج .

ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ، ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه ، كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالخلال ، وأبى عبد الله بن بطـــة ، وأمثالهما ، وكأبى الفرج المقدسي ، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ؛ لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخاري في صحيحه فإنه بدأ بـ « كتاب الإيمان والرد على المرجئة » وختمه « بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » .

ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات ، فيكون الكلام أولاً مع الجهمية ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة ، والبيهقي أفرد لكل صنف مصنفاً ، فله مصنف فى الصفات ، ومصنف فى القدر ، ومصنف فى شعب الإيمان ، ومصنف فى دلائل النبوة ، ومصنف فى البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع فى « الأسماء والأحكام » فى الإيمان والإسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض ، قال أولئك : فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد فى النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد فى النار ، وأنه ليس كافراً مرتداً ؛ بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الإيمان [ليس] معه بعض الإيمان ؛ لأن الإيمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة ، فقال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرها فالذي لابد منه تصديق القلب ، وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال .

وأنكر كل هذه الطوائف أنه « ينقص » والصحابة قد ثبت عنهم

أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول أئمة السنة ، وكان ابن المبـــارك يقول : هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك فى كونه لا ينقص روايتان ، والقرآن قد نطق بالزيادة فى غير موضــع ، ودلت النصوص على نقصه كقوله : « لا يزني الزاني حـين يزني وهو مؤمن » ونحو ذلك ؛ لكن لم يعرف هـذا اللفظ إلا فى قوله فى النساء « ناقصات عقل ودين » وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين : من جهة أمر الرب ، ومن جهة فعل العبد .

أما « الأول » فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين فى أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان فى أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الـكعبة ، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة .

و « أيضاً » فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليـه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليـه مالا يجب

على غيره إلا مجملا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان ، وهذا من أصول غلط المرجئة ؛ فإنهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوي فيه جميع المكلفين ، فقالوا : إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ؛ كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس .

فيقال لهم : قد تبين أن الإيمان الذي أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تبايناً عظيما ، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الإيمان مالا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء مالا يجب على غيرهم ، ويجب على الأمراء مالا يجب على غيرهم ، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط ؛ بل ومن التصديق والإقرار .

فإن الناس وإن كان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ماجاء به الرسول فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلا ، ومالم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والإيمان بها ، فيجب عليه من الإيمان

والعمل مالا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ، ومن الإيمان بذلك والعمل بـه مالا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل مالا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الإيمان ، وإن جعل جميع ذلك داخلا فى مسمى الإيمان كان أبلغ ، فبكل حال قد وجب عليه من الإيمان مالا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا ، فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقا مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة ، وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين فى القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا ، كما ذكر ذلك فى سورة المنافقين ، وذكر مثل ذلك فى سورة البقرة ، فقال : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)
وقال طائفة من السلف : عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولاً إيمانا مجملا ، ثم يأتي أمور لايؤمن

بها فينافق فى الباطن ، وما يمكنه إظهـار الردة بل يتكلم بالنفاق مـع خاصته ، وهذا كما ذكر الله عنهم فى الجهاد فقال : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ .

و « بالجملة » فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ، ويتفاضلون فى إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ؛ ولهذا قال النبي صـلى الله عليه وسلم فى النساء « ناقصات عقل ودين » وقال فى نقصان دينهن : « إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي » وهـذا مما أمر الله به فليس هذا النقص دينا لها تعاقب عليـه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة فى هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة فى كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً ، فهذا أفضل ديناً وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم ، فهـذه زيادة كزيادة الإيمـان بالتطوعات ؛ لكن هذه زيادة بواجب فى حـق شخص ، وليس بواجب في حـق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركهـا ، وذاك لا يستحق العقاب بتركها ، ولكن إيمـان ذلك أكمل . قال النـبى صلى الله عليـه وسلم « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » .

فهذا يبين تفاضل الإيمان فى نفس الأمر بـه ، وفى نفس الأخبار التى يجب التصديق بها .

و « النوع الثاني » هو تفاضل الناس فى الإتيان به مع استوائهم فى الواجب ، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع . وهذا أيضاً يتفاضلون فيه فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثـل دين هذا وبره وتقواه ؛ بـل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى فهو كذلك أفضل إيماناً ، كما قال النبي صـلى الله عليه وسـلم : « أ كمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » وقد يجتمع فى العبد إيمان ونفاق ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وأصل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل ؛ بـل هو شيء واحد يستوى فيه جميـع العباد فيا أوجبه الرب من الإيمـان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على « ثلاثة أقـوال » فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم

قولا ؛ وهو أن قالوا : الإيمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط .

[وقالت الكرامية هو القول فقط] فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان ، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذبا بقلبه كان منافقا مؤمنا من أهل النار ، وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته . ولم يسبقها أحد إلى هذا القول ، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة ، وهو غلط عليهم ؛ بل يقولون : إنه مؤمن كامل الإيمان ، وإنه من أهل النار ، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذبا في النار ، بل يكون مخلداً فيها . وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

وإن قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ . وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم ، وقال له : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ

عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ) وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فإن قالوا : هؤلاء قد كانوا يتكلمون بألسنتهم سراً فكفروا بذلك ، وإنما يكون مؤمنا إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فإن ذلك ردة عن الإيمان . قيل لهم : ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين . قال تعالى : (يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ) .

وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم كاذبون ، فقال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ) .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب » وقد قال الله تعالى : (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) وفى الصحيحين عن سعد : أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى رجالا ولم يعط رجلا . فقلت : يا رسول الله ! أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ؟ فقال : « أو مسلم » مرتين أو ثلاثاً . وبسط الكلام

فى هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غـير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ؛ لأنه قطب الدين الذي يدور عليه ، وليس فى القول اسم علق به السعادة والشقـاء ، والمدح والذم ، والثواب والعقاب ، أعظم من اسم الإيمان والكفر ؛ ولهذا سمى هذا الأصل « مسائل الأسماء والأحكام » وقد رأيت لابن الهيصم فيـه مصنفاً فى أنه قول اللسـان فقط ، ورأيت لابن الباقلانى فيـه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط ، وكلاهما فى عصر واحـد ، وكلاهما يرد عـلى المعتزلة والرافضة .

و « المقصود هنا » أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمـان . فلما حدث فى الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً . صار هؤلاء عمدتهـم في الباطن ليست عـلى القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ؛ فلهذا تجـدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهـما ، ولم يستقصوا ما فى القرآن من ذلك المعنى ؛ إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك ، والآيات التى تخالفهم يشرعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن ؛

ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ؛ بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم — كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي والآمدي وابن الحاجب — إن الأمة إذا اختلفت فى تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ؛ بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين . فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال فى تفسير القرآن والحديث ، وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ؛ ولكن قالوا : إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه « المقالة » لم يقولوا هذا ؛ فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ؛ لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم ، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال فى لفظ الآية بجواز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى .

وكذلك إذا قالوا يجوز أن يراد بها هذا المعنى والأمة قبلهم لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة ، وأخبرت أن مراده غير ما أراده ؛ لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير

حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ، ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا معنى الآية ؛ ولكن طائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ،وطائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد . فجاء الثالث وقال : ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه . وبسط هذا له موضع آخر .

و « المقصود » أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ، ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول ﷺ ؛ بخلاف السلف ؛ فلهذا كان السلف أكمل علماً وإيمانا ، وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه .

وكان الأصل الذي أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة ، كما قال تعالى :
(وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ * ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ) فوصفهم سبحانه بأنهم

لا يسبقونه بالقول ، وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ؛ فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله ، كما قال : (لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ) وأعمالهم تابعة لأمره ، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به ، فهم مطيعون لأمره سبحانه .

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار ، فقال : (قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد ، وقال بعضهم : بل لا يعصونه في الماضي ، ويفعلون ما أمروا به في المستقبل . وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فإذا قال : (لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ) لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون فإن العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به ، وقال : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به ، فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية . والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين ، إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الآمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به . فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد وصف الملائكة بأنهم (عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم ، مطيعون لأمره ، ولا يخبرون حتى يخبر ، ولا يعملون حتى يأمر ، كما قال تعالى :(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك ، فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه ؛ بل بينهم وبينه رسول من البشر ، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ، ولا يعملون إلا بما أمرهم به ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قال مجاهد : لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه (تقدموا) معناه تتقدموا وهو فعل لازم وقد قرىء (يقدموا) يقال : قدم وتقدم ، كما يقال : بين وتبين ، وقد يستعمل قدم متعديا أي قدم غيره ، لكن هنا هو فعل لازم ، فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به

الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ؛ بل ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ؛ فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ، ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم فى الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ؛ بل على ماراأوه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلا .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين ، بل ناقصي الإيمان مبتدعين ، وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

فصـــل

وكل من خالف ما جاء به الرسـول لم يكن عنـده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن (وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً ، فـلا يمكن أن يتصور أن يكون الحـق فى نقيضه ؛ وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً ، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فمن نهى عنـه فقد نهى عن العدل ، ومن أمر بضده فقـد أمر بالظلم ؛ فإن ضـد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلماً ظنـا وما تهوى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعا لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما أن يكون ما شرع قط : بل يكون من المبـدل ، فـكل ما خالف حكم الله ورسوله ، فإما شرع منسوخ وإما شرع مبدل ما شرعه الله ؛ بل شرعه شارع بغير إذن مـن الله ، كما قال : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) لكن هذا وهـذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابهـا استفرغوا فيـه

وسعهم فى طلب الحق ، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ؛ ولم يكن منهم مثل هذا فى جلي الأمور وجليلها ؛ لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم معتصمون بحبل الله يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله ، فضلا عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة مالم يكن مثل هذا فى السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ، ويثيبهم على اجتهادهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملها فى ذلك الزمان : لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ؛ لكن تضعيف الأجر لهم فى أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ؛ فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ، ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه ،

وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته ، وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين ، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد ، كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثاني ، والثانى أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث ، وكذلك فى الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟ هذا فيه نزاع ، وفيه قولان حكاهما القاضي عياض وغيره ومن الناس من يفرضها فى مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز ، فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد ، والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

و « المقصود هنا » أن من خالف الرسول فلا بد أن يتبع الظن

وما تهوى الأنفس ، كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى :

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) .

وقال فى الذين يخبرون عن الملائكة أنهم إناث : (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ) وهم جعلوهم إناثاً كما قال : (وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا) وفى القراءة الأخرى (عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ) وهؤلاء قال عنهم : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) لأنه خبر محض ليس فيه عمل ، وهناك : (وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ) لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها ، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم ، فقال : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ) والذي جاء به الرسول كما قال : (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن كان ممن يعتقد ماقاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذي لا يغنى من الحق شيئاً ،

كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقى إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلا ، أما أن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهانا وأدلة قطعية ، وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ، ومعان متشابهة ، لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك فى جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وهذه هي الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فإما أن تكون كذبا على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع إما فى الإسناد وإما فى المتن ودلالته على ما ذكر ، وهذه الحجة السمعية هذه حجة أهل العلم الظاهر .

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تجلى لهم أمور صادقة .

وفى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ قوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم ، وفى صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها » وفى رواية « فبي يسمع وبي يبصر وبى يبطش وبى يمشي » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به .

وكانوا يقولون إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » وقال الله تعالى (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) نور الإيمان مع نور القرآن . وقال تعالى : (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن شهد الله فى القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا فى وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله تحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر ، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري – للرازى ورفيقه وقد قالا له ياشيخ ! بلغنا أنك تعلم علم اليقين فقال : نعم ! فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر

في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته . وكلما ذكرت شيئا أفسده ؟ فقال : ـ هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام . وطلب أحدهما أن تحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له ، وكان من المعتزلة النفاة .

فتبين له أن الحق مع أهل الإثبات ، وأن الله سبحانه فوق سمواته ، وعلم ذلك بالضرورة ، رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد ابن محمد بن خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيري حكاهاله ، وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه ، وكلام المشايخ فى مثل هذا كثير ، وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه معه الانفكاك عنه ، هذا حد القاضي أبى بكر بن الطيب وغيره . فخاصته أنه يلزم النفس لزوما لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوما لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال : واردات ؛ لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا ، وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار ، متقدميهم كالكيا الهراسى والغزالى

وغيرهما ـ ومتأخريهم ـ كالرازي والآمدى ـ وقالوا نحـن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر ، هـذا لا ندفعه . لكن إن لم يكن علمـاً ضروريا فـلا بد له من دليل والدليل يكون مستلزما للمدلول عليه ، بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه . قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء ممـا يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع لـكن يقع أيضا ما يظن أنه منه كثير . أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع في الأدلة العقلية والسمعية . فمن هؤلاء من يسمع خطابا أو يرى من يأمره بقضيـة ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب هم الجن ، وهو يحسب أنه إنسي ، وقد يقول له : أنا الخضر ، أو إليـاس ، بل أنا محمـد ، أو إبراهيـم الخليل أو المسيح ، أو أبو بكر ، أو عمر ، أو أنا الشيـخ فلان ، أو الشيخ فـلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به في الهواء أو يأتيـه بطعام أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة : بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطاناً لبس عليـه ، فهذا

ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط فى السمعيات والعقليات .

فهولاء يتبعون ظنا لا يغني من الحق شيئاً ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله ؛ بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوبا إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة ، فيكون متبعاً لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس . وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه ، كقول المشركين : (إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ) وإن عكسوا احتجوا بالقدر ، وهو أن الله أراد هذا وسلطنا عليه ، فهم يعملون بهوام وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله ، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله ، فيقولون : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ؛ فإن هذا من الجد ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عقب الصلاة وفى الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله فى محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ) .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظنا لا يغني من الحق شيئاً .

فليس فى المحدثين الملهمين أفضل من عمر ، كما قال صلى الله عليه وسلم « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتى منهم أحد فعمر منهم » وقد وافق عمر ربه فى عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ﷺ ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ﷺ ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل يجعل ما ورد عليه إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه ، فيرجع إلى بيان

الصديق وإرشاده وتعليمه ، كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ﷺ ويوم ناظره في مانعي الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه مايقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء ، ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعا لما جاء به الرسول ﷺ لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطأوا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم ، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول .

وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتا عن ميت ، وأُخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال له : أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين ، وإما من اليهود والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله ؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان ؟

و « الوحي » وحيان : وحي من الرحمن ، ووحي من الشيطان ، قال تعالى : (وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا) وقال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ) وقد كان المختار بن أبى عبيد من هذا الضرب ، حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما إنه يقول إنه يوحى إليه ، فقال : (وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ) وقيل للآخر : أنه يقول إنه ينزل عليه ، فقال (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ) .

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيمانى القرآنى النبوي الشرعى أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها . والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره ، كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس والخبر والنظر ، وكل إنسان [يستدل] من هذه الثلاثة فى بعض الأمور ؛ لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس فى الدين وغير الدين ، كالطب فإنه تجربات وقياسات ، وأهله منهم من تغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس ؛ لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلة والمناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية ، فلا بد له من الحسيات التى

هي الأصل ليعتبر بهـا ، والحس إن لم يكن مع صاحبه عقـل وإلا فقد يغلط .

والناس يقولون : غلط الحس ، والغلط تارة مـن الحس ، وتارة من صاحبه ؛ فإن الحس يرى أمراً معيناً ، فيظن صاحبه فيـه شيئا آخر فيؤتى من ظنه ، فلا بد له من العقل .

ولهذا النائم يرى شيئا وتلك الأمور لها وجود وتحقيق ؛ ولكن هي خيالات وأمثلة ؛ فلما عزب ظنها الرائى نفس الحقائق كالذي يرى نفسه فى مكان آخر يـكلم أمواتاً ويكلمونه ، ويفعـل أموراً كثيرة وهو فى النوم ، يجزم بأنه نفسه الذي يقـول ويفعل ، لأن عقـله عزب عنـه ، وتلك الصورة التى رآها مثـال صورته وخيالهـا ؛ لكن غاب عقـله عن نفسه ، حتى ظن أن ذلك المثـال هو نفسه فلما ثاب إليه عقله عـلم أن ذلك خيالات ومثالات ، ومن الناس من لا يغيب عقله بل يعلم فى المنام أن ذلك فى المنام ، وهذا كالذي يرى صورته في المرآة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقـل ظن أن تلك الصورة هي الشخص ، حتى أنه يفعل به ما يفعل بالشخص . وهـذا يقع للصبيان والبـله ، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينـزل ، فيظنونه شخصاً حقيقة ، ولا يعلمون أنه خيال ، فالحس إذا أحس [حساً] صحيحاً لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال ؛ فإن العقل قد عقل قبل

هذا أن مثل هذا يكون مثالا ، وقد عقل لوازم الشخص بعينه ، وأنه لا يكون فى الهواء ولا فى المرآة ، ولا يكون بدنه في غير مكانه ، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ماله وجود فى الخارج ، وما لا يكون موجوداً إلا فى أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعرفه كل أحد ، ولكن قد يرون فى الخارج أشخاصاً يرونهـا عياناً ، وما في خيال الإنسان لا يراه غـيره ويخاطبهم أولئـك الأشخاص ، ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بهـا ، وإما إلى غـير عرفات ، ويأتونهم بذهب وفضة ، وطعـام ولباس ، وسلاح وغير ذلك ، ويخرجون إلى الناس ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي ، فيأتونـه بذلك إما محمولا فى الهـواء وإما بسعى شديد ، ويخبر أنه وجد فى نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه أو يخبر أنه سمع خطاباً ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه . فهذا كله موجود كثيراً ؛ لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بمـا قاله وعمله من السحر .

ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ، ويقول : هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنهم من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو

ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال هؤلاء رجال الغيب وإن تسموا فقالوا : هذا هو الخضر ، وهذا هو إلياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عدي أو الشيخ أحمد الرفاعي أو غير ذلك ، ظن أن الأمر كذلك .

فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء ، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو الشيخ وهو صادق في أنه إياه من قال إنه النبي ، أو الشيخ ، أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك .

والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي صلى الله عليه وسلم ، تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع ، مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره ، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا .

وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ، ويسمون تلك الصورة رقيقة

فلان ، وقد يقولون : هو معناه تشكل ، وقد يقولون : روحانيته . ومن هؤلاء من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني ولا فلاناً يحضرني ، فإني أنا أغسل نفسي ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً ؛ فإنه كان في حياته يقول له أموراً وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشركين كالهند فهذا كثيراً مايرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ، ورد ودائع وقضى ديوناً ، ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه وإنما هو شيطان تصور في صورته .

ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أو غيره ، والميت على سريره وهو يراه آخذاً يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه ، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطاناً ، ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم إنه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ويسمونه خالداً الغيبي ، وينسبون الشيخ إليه فيقولون : محمد الخالدي ونحو ذلك .

فإن الجن مأمورون ومنهيون ، كالإنس وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل ، كما قال

تعالى : (يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ) وهـذا بعد قوله :

(وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ) .

قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتم من الإنس وأضللتموهم . قال البغوي : قال بعضهم : استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم : من الأراجيف ، والسحر ، والكهانة ، وتزيينهم لهم الأمور التي يهيئونها ويسهل سبيلها عليهم، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي ، قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض ، وموافقة بعضهم بعضاً ، وذكر ابن أبى حاتم عن الحسن البصري . قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس ، وعن محمد بن كعب قال هو الصّحابة فى الدنيا ، وقال ابن السائب استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا : قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفا في أنفسهم ، وعظماً فى نفوسهم ، وهـذا كقوله : (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا)

قلت « الاستمتاع بالشيء » هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض كما قال : (فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً) ومن ذلك الفواحش ، كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث .

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل فى ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله : (وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ) وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم ، وأدناها كسوة تجزى فيها الصلاة .

وفي « الجملة » استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس ، قال تعالى : (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى : (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ) قال مجاهد : هي المودات التى كانت لغير الله ، وقال الخليل : (إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) وقال تعالى : (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع فى الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم ، وهؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن ، فتارة تسجد له ، وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة تمكنه من نفسه ، فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال ، وهذا كثير فى رجال الجن ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي ، وقد يفعل ذلك بالذكران .

وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة : تارة يكون الجني يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به . وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الإنسي آذاهم إذا بال عليهم ، أو صب عليهم ماء حاراً ، أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى وهذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فى الأخبار بالأمور الغائبة ، كما يخبر الكهان ، فإن في الإنس من له غرض فى هذا ؛ لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب لم تبال بأن يقال : إنه كاهن كما كان بعض العرب كهاناً ، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى

الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي ، بأن يطيعه الإنسي فى بعض ما يريده إما في شرك وإما فى فاحشة وإما فى أكل حرام ، وإما فى قتل نفس بغير حق .

فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يأمرون السارق أن يسرق ويذهبون إلى أهل المال ، فيقولون : فلان سرق متاعكم ؛ ولهذا يقال : القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذى ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة : لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ، ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما

امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه ، وقد لا يكون .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فى إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام ، وثياب ونفقة ؛ فقد يأتون ببعض ذلك ، وقد يدلونه على كنز وغيره . واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به ياسيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ، ثم إن الشيخ يقول : نعم ! ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتى الجني بمثل ذلك الصوت والفعل ، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه ، وهو الذي فعل ذلك حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده فى إناء يأكل ، فيضع الجني يده فى صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ؛ فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء ؛ فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده

فى ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يـدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه ، ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد ، حتى ظن كل منهما أن أحـدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقـة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة فى النساء أو غير ذلك ، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لـكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المـال معظما ، وأراد أن يدله على سرقته ، مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهـم يظهرون صورة المـال ولا يكون عليه ؛ لأن الذي سرق المال معـه أيضاً جني يخدمـه ، والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً ، فإذا دل الجني عليه جاء إليـه أوليـاء السارق فآذوه ، وأحيانا لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونـه ويرشونه ، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به ، إما لرغبة ينالهـا منه وإما لرهبـة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه . فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفون كتكليف الإنس ، ومحمد صلى الله عليـه وسلم مرسل

إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بالنصوص وإجماع المسلمين .

وأما مؤمنوهم : ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة ، وقد روى أنهم يكونون في ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس عكس الحال في الدنيا ، وهو حديث رواه الطبراني فى معجمه الصغير يحتاج إلى النظر فى إسناده .

وقد احتج ابن أبى ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى : (وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟) وقد ذكر الجن والإنس : الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى : (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ) وقد قال تعالى في الأحقاف: (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟) وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة ، وقوله : (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ) ثم قال : (وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علوا ودرجات أهل النار تذهب سفلا ، وقد قال تعالى عن قول الجن : (مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) وقالوا : (وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

تَحَرَّوْاْ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما فى الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس . فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء : منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم فى أمور مباحة ، إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم ، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض فى ذلك .

و « النوع الثالث » أن يستعملهم فى طاعة الله ورسوله ، كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا صلى الله عليه وسلم وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ،

وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ؛ إذ كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بذلك إلى الثقلين الإنس والجن ، وقد قال الله له : (قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) وقال : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وعمر رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل ! قال : إن لله جنوداً يبلغون صوتي . وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحي الجن ، فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية ، وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه ، فيقول : يا فلان ! فيعان على ذلك فيقول : الواسطة بينهما يا فلان ، وقد يقول لمن هو بعيد عنه يا فلان احبس الماء ، تعال إلينا ، وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك يا فلان احبس الماء ، أرسل الماء ؛ إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه .

وهذه حكاية : كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر ، فقال عمر : من أين لكم

هذا ؟ قالوا شخص صفتــه كيت وكيت فأخبرنا ، فقــال عمر ذاك أبو الهيثم بريد الجن ، وسيجىء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض النـاس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى النــاس يتحدثون به ، فإن الجــن تسمعه وتخبر به النــاس ، والذين يستخدمون الجن فى المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطى ملـكا لا ينبغي لأحد بعده ، وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره والنبي صلى الله عليــه وسلم لما تفلت عليه العفريت ليقطـع عليه صلاته قال : « فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدي ، وأردت أن أربطه إلى سارية مـن سواري المسجد ، ثم ذكرت دعوة أخي سليمان فأرسلته » فلم يستخدم الجن أصلا ؛ لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالإنس .

والذي أوتيه صلى الله عليــه وسلم أعظم ممــا أوتيه سليمان ؛ فإنه استعمل الجن والإنس فى عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختــار أن يكون عبداً رسولا على أن يكون نبياً ملـكا ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل ، كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأوليـاء ، وكثير من أهل

الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك ـ من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأهل البدع والضلال من الداخلين فى الإسلام فجعلوا الخوارق جنساً واحداً، وقالوا: كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها.

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك، وأن يقيض له من يعارضه، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله. فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي مما لم يكن معتاداً للناس، قالوا: إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة، فهذه هي المعجزات عندهم، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة، لكن أنكروا كرامات الصالحين، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبذة والحيل، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي، قالوا: فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع.

وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها يكون للسحرة ما هو مثلها، وتناقضوا فى ذلك، كما قد بسط فى غير هذا الموضع.

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ؛ فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة ، فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء . وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ثم يقولون : الولي إذا تولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالاضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة ، وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش ، والفحش والتفحش فى المنطق ، وظلم الناس وقتل النفس بغير حق ، والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلا من الله تعالى ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين تضل بها الناس وتغويهم .

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص فى النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق ، وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك ، وأنت تتوب الناس لي ، ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره فى النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول : أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه ، أو أن ملكا تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركا .

وتارة يأتون إلى من هو خال فى البرية وقد يكون ملكا أو أميراً كبيراً ، ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت ، فيأتيه فى صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه ، فيسلم على يديه ويتوبه ويطعمه ، ويدله على الطريق ، ويقول من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون [من مؤمني الجن][1] .

كما جرى مثل هذا لي . كنت فى مصر فى قلعتها ، وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا وكنت فى الحبس ؛ فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم ؛ لما جاءوا إلى دمشق : كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم

(١) بالأصل « فى موضع » .

ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من النـاس . فلم لا يجوز أن يكون ملـكا ؟ قلت لا . إن الملك لا يكذب ، وهذا قـد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك .

وكثير من الناس رأى من قال إني أنا الخضر ، وإنما كان جنياً .

ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر . وكلا الطائفتين مخطئ فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون والحكايات متواترات ؛ لكن أخطأوا فى ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ، ولهـذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتيهم فى كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم فى كنـائسهم من يقـول إنه الخضر ، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هـذا الموضع ، يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر ، وأنه غلط فى ظنه أنـه الخضر وإنما كان جنياً . وقد يقول : أنا المسيح ، أو موسى ، أو محمد أو أبو بكر ، أو عمر ، أو الشيخ فـلان ، فـكل هذا قـد وقع ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « من رآنى فى المنام فقد رآني حقـاً

فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » قال ابن عباس : في صورتـه التى كان عليها فى حياته . وهذه رؤية فى المنام ، وأما في اليقظـة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتي .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب — كما يظنون — أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكـور في أناجيلهم . وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطانا قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هـذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه ، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج ، فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن — وقـد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من كلام الجن ، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي ، وكان يقول : انتقل ثم مات ، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن وقيل كان بعد هذا يأتى خواص

أصحابه فى صورته فيعتقدون أنه هو ، وهكذا الذين كانوا يعتقــدون بقاء علي أو بقـاء محمد بن الحنفية قد كان يأتى إلى بعض أصحــابهم جني في صورته ، وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحيــاناً ويكون المرئي جنياً .

فهذا باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان القوم أجهل كان عنــدهم أكثر ، ففي المشركين أكثر مما فى النصارى ، وهو فى النصــارى كما هو فى الداخلين فى الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها ، فينتقلون بسببها إلى ماهو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قــد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصيرون خيراً ممـا كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم »

وهـــذا كالحجــج والأدلة التى يذكرها كثير من أهل الــكلام والرأي ، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ، ويقوى بهــا قلوب كثير من أهــل الحق ، وإن كانت في نفسهـــا باطلة فغيرهــا أبطل منهــا ، والخير والشر درجات ، فينتفع بها أقوام ينتقلون ممـــا كانوا عليه إلى ما هو خير منه .

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين : من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة فى الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص ، قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذبا وهذا كالرجل يسلم رغبة فى الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان فى قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله فى حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه ، وخف الشر الذي كان فيه . ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه .

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق بغاية الإمكان

ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان ، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . وأكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل ، وبدعة ببدعة ؛ لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعا ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ؛ فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ، ومنهم من يفضله على أبى بكر وعمر ؛ ولكن حكى عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ، ولا أعلم عينها . وقالوا إنه قال : لو شهد علي والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ، والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبى موسى وعمرو بن العاص لأجل علي ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم ؛ بخلاف طلحة والزبير

وعائشة فإنهم يقولون : إن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ، ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب فى تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض ، وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته ، وحكمته وصدقه ، وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ؛ لكنهم غلطوا فى بعض ماقالوه فى كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من « التوحيد » نفي الصفات وإنكار الرؤية ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا فى ذلك الجهمية ، وجعلوا من « العدل » أنه لا يشاء ما يكون ، ويكون مالا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة .

وكذلك هم والخوارج قالوا بـ « إنفاذ الوعيد » ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب ؛ إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد . وكذلك « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف » قصدوا به طاعة الله ورسوله ، كما يقصده الخوارج والزيدية ، فغلطوا في ذلك .

وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة

ونصرها وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق . وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء .

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة ، وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة ، بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها ؛ بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في « مسائل العدل والأسماء والأحكام » إلى مذهب جهم ونحوه .

وكثير من الطوائف « كالنجارية » أتباع حسين النجار و « الضرارية » أتباع ضرار بن عمرو يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام ، وإنفاذ الوعيد . والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها .

وكذلك يبالغون فى ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ؛ فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين . وروى بإسناده عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه ، يقول : فألهمنا دينك الحق – وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له – حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ، ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم ، يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد [من][1] عبّادنا ففيه شبه من النصارى.

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل ، والسلوك فى طريقه ، وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة .

---

(١) أضيفت حسب مفهوم السياق

فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقا لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة ، وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة ، فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعي الباطل المنهى عنه .

وكذلك « الصوفية » عظموا جنس الإرادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا فى الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة دون طريقة النظر، وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ؛ ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم ، وأولئك يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض .

وكذلك بين أهل الكلام والرأي ، وبين أهل التصوف والزهد

تنافر وتباغض ، وهذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

فصل

فإن قيل : فإذا كان فى كتب الأناجيل التى عندهم أن المسيح صلب ، وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح — ولا يقولون : إن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم — وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام ، فأين الإنجيل الذي قال الله عز وجل فيه : (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ)

وقال قبل هذا : (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)

وقد قال قبل هذا : (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ) وقال أيضاً : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) وقال أيضاً : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) .

وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم — وهم من كان في وقته ومن يأتى من بعدهم إلى يوم القيامة — لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم ، وكذلك قوله : (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ) إخبار عن اليهود الموجودين ، وأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، وكذلك قوله : (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ) هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل ، ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل قبل هذا : إنه قد قيل : ليس فى العالم نسخة بنفس ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ؛ بل ذلك مبدل ؛ فإن التوراة انقطع تواترها ، والإنجيل

إنما أخذ عن أربعة .

ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما فى التوراة أو الإنجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيل لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب ، وإنما حرفوا معانيها بالتأويل ، وهذان القولان قال كلا منهما كثير من المسلمين ، والصحيح القول الثالث ، وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة ، وبقيت إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسخاً كثيرة محرفة ، ومن قال إنه لم يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي صلى الله عليه وسلم حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ، ويخبر أن فيهما حكمه ، وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول : هو سبحانه قال : (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ) وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها فى التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من

الموجودين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما أنزله الله عليهما ولا هو مما أمرا به فى حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك : (لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) وقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) فإن إقامة الكتاب العمل بما أمر الله به فى الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول ، وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ليس هو مما أنزله الله على الرسول ، ولا مما أمر به ولا أخبر به ، وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه فى آخره عمر المصنف ونسبه وسنه ، ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن ، وأن لا يكتب فى المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفى المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور ، والتخميس ، والتعشير ، والوقف ، والابتداء ، وكتب فى آخر المصحف تصديقه ، ودعا ، وكتب اسمه ، ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن ،

فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح ، وإنما هو مما رآه من بعده ، والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة فى كلام الأنبياء . وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقاً قبل وإلا رد ؛ ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والحديث يجب قبوله ؛ لا سيما المتواتر كالقرآن ، وكثير من السنن . وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه رد إلى الله والرسول ، وعمر قد كان أولاً أنكر موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا فى تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا فى قتال ما نعى الزكاة ، فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ، ولم يشهد أحد منهم

صلبه ؛ فإن الذي صلب إنما صلبه اليهود ، ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً ، وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح ، وقد قيل : إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح . ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس ، والأول هو المشهور ، وعليه جمهور الناس .

وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ؛ لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام ، وقال : أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعي [أحدهم] أنه نبي أو صالح ، ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطانا وفي ذلك حكايات متعددة ، مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاء وقال : أنا المسيح جئت لأهديك ، فعرف أنه الشيطان فقال : أنت قد بلغت الرسالة ، ونحن نعمل بها ، فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى :
(وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ)
وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله : (وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ) فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة ؛ إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن جوز قتله فهو كمن قتله ، فهم فى هذا القول كاذبون وهم آثمون ، وإذا قالوه فخرا لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه ، وقد قال

النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وقوله : (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ) قيل : هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين ، وقوله (لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ) قيل : من قتله ، وقيل : منه أي فى شك منه هل صلب أم لا ، كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر ، وقالت النصارى إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ، وهم فى شك من ذلك : (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ) فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذي جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح ؟ .

فإن قيل : [إذا] كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : (وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) وقوله : (فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ) .

قيل : ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى إيمانه إذا كان لم يحرف ماجاء به المسيح . بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى

إيمانه ، فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له ، وقتل النبي لايقدح فى نبوته ، وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء . وقال تعالى (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) الآية . وقال تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ) .

وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم هو ، مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم فى اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ؛ بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعا للسنة واتباعا له ، وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره ، فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ، لم يكن هذا قادحا في إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

فصـــــل

وقوله تعالى فى هذه : (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ) هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم ، وكذلك قوله : (إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) وكذلك قوله :

(وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا)

وقوله تعالى : (وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وقوله : (أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ) .

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن ، وكذلك قوله : (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ) مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم ، وكذلك قوله : (نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) وقوله : (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ)
وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم . وعمل بالظن .

وقد ثبت فى السنة المتواترة وإجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين، وإن لم يكن شهود حلف الخصم . وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

والاجتهاد فى « تحقيق المناط » مما اتفق المسلمون عليه ، ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان ؛ بل يجوز أن تكون القبلة فى غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لابد فيها من هذا ؛ فإن دلالة العموم فى الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس ، وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينازعوا فى خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع فى هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع ، كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه لم ينازع فى الأخبار ؛ فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الاثنى عشر ، فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من

يستغني عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لابد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه ، وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوعت طرق الناس فى جواز هذا ؛ فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلا ، وقالوا إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون فى الظواهر ، بل يقولون نقطع بخطأ من خالفنا ، وننقض حكمه ، كما يقوله داود وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً ــ وأما الاستصحاب . فالاستصحاب فى كثير من المواضع من أضعف الادلة ــ وهم في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ ؛ بل الظاهر خلافه ؛ فطائفة قالت : لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم ، لا نعمل بالظن وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأتباعه .

وهنا السؤال المشهور فى « حد الفقه » : أنه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازي : العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً ؟

قلت : المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط

الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعاً ، والظن واقع في طريقه ، وحقيقة هذا الجواب أن هنا مقدمتين (إحداهما) أنه قد حصل عندي ظن ، و (الثانية) قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن .

فـ « المقدمة الأولى » وجدانية و « الثانية » عملية استدلالية ؛ فليس الظن هنا مقدمة فى الدليل كما توهمه بعضهم ، لكن يقال : العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه ، بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر ؛ وخبر الواحد والقياس والأصول تفيد أن العمل بهذا الظن واجب ، وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا ، فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه ، وهذا الجواب جواب القاضي أبى بكر ، وهو بناه على أصله ، فإن عنده كل مجتهد مصيب ، وليس فى نفس الأمر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ؛ بل الظنون عنده بحسب الاتفاق .

وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله : قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر ، كميل ذي الشدة إلى قول ، وذي اللين إلى قول .

وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظناً فى نفسه ، فحكم الله فى حقه

اتباع هذا الظن ، وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول إنكاراً بليغاً ، وهم معذورون فى إنكاره ، فإن هذا أولاً مكابرة ، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء ، والكلام فى شيئين : فى اتباع الظن ، وفى الفقه هل هو من الظنون ؟

أما الأول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم ، وذلك أنه فى المسائل الخفية عليه أن ينظر فى الأدلة ، ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به ، وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الإعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فقد يكون علما وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان ، وإذا ظن الرجحان أيضاً فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم ، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن وهو اتباع الأحسن ، كما قال (فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) وقال : (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) وقال : (وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم) فإذا كان

أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصري ، وأبي وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه إلى علم بأن هذا أرجح من غيره : كما قال : (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ) وقال : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه ، والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعملون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً ؛ لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت فى نفس الأمر .

وهذا كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع » فإذا أتى أحد الخصمين بحجة ، مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح ، فما حكم إلا بعلم ؛ لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أولا يحسن أن يبينها ، مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه ، وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أولا

يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك . فيكون هو المضيع لحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم الا بعلم وعدل ، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام ، فإذا تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم ؛ لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يزك الآخر . فهذا المزكى أرجح ، وإن جاز أن يكون فى نفس الأمر قول الآخر هو الحق ؛ لكن المجتهد انما عمل بعلم ، وهو علمه برجحان هذا على هذا ؛ ليس ممن لم يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفى تزكية هذا الشاهد ، فإن المرسل قد يكون راويه عدلا حافظاً ، كما قد يكون هذا الشاهد عدلا .

ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوي ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا تعلم عدالتهما مع تقويتها ورجحانها فى نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ فى الاجتهاد ؛ لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكان ثبوته في نفس الأمر، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على مالا يعلم ثبوته ، وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فإنهما إذا

تعارضا وكانا متناقضين ، فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ، فهـذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفى ذاك. وذاك المجهول بالعكس ، فإذا كان لابد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على مالم يعلم ثبوته .

ولكن قد يقال : إنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا : فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم ، والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن ؛ لكن لم يكن ممن قال الله فيه : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم ، فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد فى جميع العلوم ، والصناعات ، كالطب ، والتجارة ، وغير ذلك .

وأما الجواب عن قولهم الفقه من باب الظنون : فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر ، وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه ، كقوله : (فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ) .

والتحقيق أن عنه جوابين :

« أحدها » أن يقال : جمهور مسائل الفقه التى يحتاج إليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الإجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع فى قليل مما يحتاج إليه الناس ، وهذا موجود في سائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هي فى أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما ما لا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون فى كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة ، والحج واستقبال القبلة ، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمر والفواحش ، وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

و « أيضاً » فكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي ، فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد للسهو ، وقضى بالدية على العاقلة ، وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه ألبتة .

« الجواب الثاني » أن يقال : الفقه لا يكون فقهاً إلا من المجتهد المستدل ، وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح ،

فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل وهذا الظن ؛ ليس الفقه قطعه بوجوب العمل ، أي بما أدى إليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولي يتكلم فى جنس الأدلة ، ويتكلم كلاماً كليلا ، فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحها ، ويقول أيضاً : إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ، ويقول أيضاً : العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ، ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه : فيتكلم فى دليل معين فى حكم معين ، مثل أن يقول قوله : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ)
خاص فى أهل الكتاب ، ومتأخر عن قوله : (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب ، وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر ؛ فيكون ناسخاً ومخصصاً ، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه هو علم قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للأئمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات ، واعتقاد المقلد ليس بفقه .

ولهذا قال المستدل على أعيانها : والفقيه قد استدل على عين

الحكم المطلوب والمسؤول عنه ، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له ، وإذا قيل له : فقد قال : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ قال : هذا نزل عام الحديبية ، والمراد به المشركات ، فان سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك ، فهي خاص متأخر وذاك عام متقدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم .

ولهذا لما نزل قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فارق عمر امرأة مشركة ، وكذلك غيره ، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ؛ فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة ، وآية المائدة بعد آية البقرة . فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل ، وظن على دليل ، وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ فهم لا يتبعون إلا الظن ، ليس عندهم علم . ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علماً لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن . والله أعلم .

فصـــــل

فهنا ثلاثة أشياء « أحدها » الظن الراجح فى نفس المستدل المجتهد .

و « الثاني » الأدلة ـ التى يسميها بعض المتكلمين أمارات ـ التى تعارضت ، وعلم المستدل بأن التى أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

« الثالث » أنه قد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد ؛ فإن الرجل قد يسمع نصاً عاماً ، كما سمع ابن عمر وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير وظاهره العموم ، وهذا راجح على الاستصحاب النافي للتحريم ، فعملوا بهذا الراجح ، وهم يعلمون قطعاً أن النهي أولى من الاستصحاب ؛ لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ؛ ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكانوا يفتون بأن الحائض عليها الوداع ، وعليها قطع الخفين ، وأن قليل الحرير وكثيره حرام .

وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء ؛ لعموم قوله : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وكان فى نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي صلى الله عليه وسلم رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص في موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير ، كما بين ذلك فى الصحيح فى رواية عمر ، ولم يعرف به ابنه عبد الله ، وكان له جبة مكفوفة بالحرير فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا ، وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلموا به ، وهم فى الحالين إنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن ، فإنهم أولاً رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ، فإن هذا راجح بلا ريب ، والشرع طافح بهذا .

فما أوجبه الله أو حرمه فى كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما هي نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة ، وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم ، وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك

لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء الخصوص ، وهذا القول في سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص ، وتكون منسوخة ، ولم يبلغه الناسخ كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية ، وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ . وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ؛ وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة ، وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين : بعضها إلى هذه القبلة وبعضها إلى هذه القبلة ، لما بلغهم النسخ وهم فى أثناء الصلاة فاستداروا فى صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة ، من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون فى الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ، ويقولون : ما ثم إلا الظن الذي فى نفس المجتهد ، والأمارات لا ضابط لها وليست أمارة أقوى من أمارة ؛ فإنهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً ، وعندهم ليس فى نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون : بل الأمارات بعضها أقوى من بعض فى نفس الأمر ، وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى ، فإذا رأى دليلا أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإذا كان فى الباطن ما هو أرجح منه

كان مخطئاً معذورا ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ؛ لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه .

فإذا أريد بالخطأ الإثم فليس المجتهد بمخطىء ؛ بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران ، كما فى المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة ـ واحد وله أجران لاجتهاده وعمله ـ كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علما وعملا زاده أجرا بما زاده من العلم والعمل قال تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ) قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف :(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن « الفقه » من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ؛ إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر كما قال تعالى : (وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا

سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال في الأصول والفروع ، ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين « قسمين » أصولا ، وفروعا لم يكن معروفا فى الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي استفرغ وسعه فى طلب الحق يأثم لا فى الأصول ولا فى الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة وأدخله فى أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبرى أنه قال : كل مجتهد مصيب ، ومراده أنه لا يأثم .

وهذا قول عامة الأئمة كأبى حنيفة والشافعي وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها — كمالك وأحمد — فليس ذلك مستلزما لإثمها ؛ لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعا له من إظهار البدعة ؛ ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره ، وكذلك قال الخرقى : ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد ، وبسط هذا له موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطا يميز بين النوعين ، بل تارة يقولون : هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسائل الأحكام قطعي ، وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس . فإن كون الشيء قطعيا وظنيا أمر إضافي ، وتارة يقولون : الأصول هي العلميات الخبريات والفروع العمليات وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وتارة يقولون : هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطئ فإن الكفر حكم شرعى يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما فى مسائل الأحكام . مثال ذلك ما تقدم فى الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، ومسائل الأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، وهي التى توالي المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرأون ممن خالفهم فيها ، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه ، وطاعة أمره ، لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم .

وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم ، كأبى الحسن الأشعري وأصحابه ـ فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم

ليس عند أولئك ، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحط علما بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ؛ بل علموا بعضا وجهلوا بعضا ؛ فإن هؤلاء المجبرة هم فى الحقيقة لا يثبتون لله عدلا ولا حكمة ، ولا رحمة ولا صدقا .

فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور . أما العدل فعندهم كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه ؛ ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحا ، ويقولون : القبيح هو مانهى عنه ، وهو لاناهي له ٠ ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكراً وشركا ، والنهي عن كل شيء وإن كان توحيداً ومعروفا ، فلا ضابط عندهم للفعل ؛ فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقا بين المعجزات وغيرها ، ولا مابه يعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ) وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس فى الممكن قسط وجور ، حتى يكون قائماً بهذا دون هذا ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك « الحكمة » عندهم لا يفعل لحكمة ، وقد فسروا « الحكمة » إما بالعلم ، وإما بالقدرة ، وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون

حكيما ويكون غير حكيم ، كذلك المريد قد تكون إرادته حكمة وقد تكون سفها ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها ، فليس عندهم فى نفس الأمر أن الله حكيم ، وكذلك « الرحمة » ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم فى نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً .

وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، وبين تناقضهم في الصفات والأفعال ؛ حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ، وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضا منهم ؛ فإن الرازي ذكر فى المطالب العالية « مسألة الإرادة » ورجح فيها نفي الإرادة ؛ لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ، واعترف فى آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لاتشفى عليلا ولا تروى غليلا .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى الإثبات : (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ

ٱلطَّيِّبُ) واقرأ فى النفي : (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ) (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا)
ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى .

فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته ، وكذلك الصدق فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا : الصدق فى الكلام النفسانى واجب ؛ لأنه يعلم الأمور ومن يعلم يمتنع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره .

فقيل لهم : هذا ضعيف لوجهين :

« أحدهما » الصدق فى ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق فى العبارات الدالة عليه ، ويميز بين الأفعال عندهم .

« الثانى » أنهم أثبتوا الخبر النفسانى فإن الإنسان يخبرك بالكذب ، فيقوم فى نفسه معنى ليس هو العلم ، وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضي أنهم يقولون : إن العالم قد يقوم فى نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعني به شيئاً خلافا للحشوية ، قيل له : هل قال أحد من طوائف الأمة إن الله لا يعني بكلامه شيئاً ؟ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه . وقيل

له : هب أن في هذا نزاعا فهو لم يقم دليلا على امتناع ذلك ؛ بل قال هذا عيب أو نقص والله منزه عنه ، فقيل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة ، أما الأول فلا يجوز إرادته هنا ؛ لأن المسألة هى فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ، ولا يعني به شيئاً وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف — وهو مراده — فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس منزها عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو مالا تريده ، فهذا ممتنع .

فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ، ولا على تنزيهه عن العيب فى خطابه ؛ فإن ذلك إنما يكون ممن ينزهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ، ولا رحمته ولا صدقه ، والمعتزلة قصدهم إثبات هذه الأمور ؛ ولهذا يذكرونها في خطبة الصفات ، كما يذكرها أبو الحسين البصري وغيره ، كما ذكر فى أول صور الأدلة خطبة مضمونها : أن الله واحد عدل (لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) و (إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) وأظن فيها إثبات صدقه ؛ ولهذا يكفرون من يجوره ، أو يكذبه ، أو يسفهه ، أو يشبهه ؛ ولكن قد غلطوا فى مواضع كثيرة ، كما قد نبه على هذا فى غير موضع ، فكلا الطائفتين معها حق وباطل ، ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على

وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون ؟ بخلاف أولئك المختلفين . قال تعالى : (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) .

فصل

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات ، وابن كلاب ومن تبعه ـــ كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم ـــ أثبتوا الصفات : لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته . ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها ، كما قال تعالى : (وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) فأثبت رؤية مستقبلة ، وكذلك قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) ،
ومثل كونه نادى موسى حين أتى ، لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ؛ فإن المعتزلة والجهمية يقولون : خلق نداء في الهواء . والكلابية والسالمية يقولون : النداء قام بذاته وهو قديم ؛ لكن سمعه موسى ، فاستجدوا سماع موسى ، وإلا فما زال عندهم مناديا .

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا، وتبين أنـه ناداه حين جاء ، وأنه يتكلم بمشيئته فى وقت بكلام معين ، كما قال : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) وقال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) .

والقرآن فيه مئون من الآيات تدل عـلى هـذا الأصل ، وأما الأحاديث فلا تحصى . وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما : لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامـة أهل السنة ؛ فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحـد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل . والذين قالوا من المتأخرين : هو قديم كثير منهم من لم يتصور المراد ؛ بل منهم من يقول : هو قديم فى علمه ، ومنهم من يقول : قديم أي متقدم الوجود ، متقدم عـلى ذات زمان المبعث ؛ لا أنه أزلي لم يزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته ؛ إذ كان خلقـه لهم بمشيئته وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم ، وقـد جاء فى

القرآن والسنة فى غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : ملك كذاب ، وشيخ زان ، وعائل مستكبر »

وكذلك فى « الاستماع » قال تعالى : (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي استمعت . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال : « لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته » فهذا تخصيص بالإذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض .

وكذلك (سمع الإجابة) كقوله : « سمع الله لمن حمده » وقول الخليل : (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) وقوله : (إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) يقتضي التخصيص بهذا السمع ، فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة ، وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته — كما تقدم — وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل ، لا بمعنى يقوم بذاته . وتخصيص من يحب بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم .

لكن مع ذلك هل يقال : إن نفس الرؤية والسمع الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته فلا يمكن وجود مسموع ومرئى إلا

وقد تعلق به كالعلم ؟ أو يقال : إنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض المخلوقات ؟ هذا فيه قولان : والأول قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون : متى وجد المرئى والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

والقول الثانى : أن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته ، فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن أبى عمران الجونى قال : مانظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ، ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم .

وقد يقال : هذا مثل الذكر والنسيان ، فإن الله تعالى قال : (فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي ، وإن ذكرني فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشي أتيته هرولة » فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ

ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰ) ومثله قوله : (ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ) .

وقد فسروا هذا النسيان بأنه (١) وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفى الصحيح فى حديث الكافر يحاسبه قال : « أفظننت أنك ملاقى ؟ قال : لا . قال فاليوم أنساك كما نسيتني » فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً ، وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله ، فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

فصل

جماع « الفرقان » بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق السعادة والنجاة ، وطريق الشقاوة والهلاك : أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه

(١) بياض بالأصل

يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق ، وان خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه ، أو تكذيبه ، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ماجاء به الرسول . وقد يكون علم من غير الرسول ؛ لكن في أمور « دنيوية » مثل الطب والحساب ، والفلاحة والتجارة .

وأما الأمور « الإلهية ، والمعارف الدينية » فهذه العلم فيها مأخذه عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها ، وأرغبهم فى تعريف الخلق بها ، وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد فى العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون فى علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك ، فلم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

وبيان الرسول على وجهين .

تارة يبين « الأدلة العقلية » الدالة عليها ، والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية .

وتارة يخبر بها خبراً مجرداً لما قد أقامه من الآيات البينات ، والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقول عليه إلا الحق ، وأن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه ، والأدلة التى بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة ، وهي أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضاً شرعية سمعية ، لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد إليها ، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية فى المطالب الدينية ، وهم يذكرون ذلك فى كتبهم الأصولية ، وفى كتب التفسير ، وعامة النظار أيضاً يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة فى المطالب الدينية ، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

و « العلوم ثلاثة أقسام » منها مالا يعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التى بينها القرآن وأرشد إليها الرسول ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ؛ فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح فى الدلائل العقلية مطلقاً لأنه قد صار فى ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين . ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية

العقلية منه ؛ لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط ، فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر ، حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه ، ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي ، مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية ، والملائكة والعرش ، والجنة والنار ، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه .

فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته ، وعلمه وقدرته ، ومشيئته وحكمته ، ورحمته ونحو ذلك فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية ، وإن كانت الأدلة والآيات التى يأتى بها الأنبياء هي أكمل الأدلة العقلية ؛ لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد ، وإن كانت أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً ؛ فيعلم بالأدلة العقلية التى أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التى دلت على صدقهم .

وقد تنازع الناس فى « العلم بالمعاد ، وبحسن الأفعال وقبحها » فأكثر الناس يقولون : إنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل ، قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول : المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر ، وهو قول الأشعري

وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك .

وكتب أصول الدين لجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ؛ لكن الرازي طعن في ذلك فى « المطالب العالية » قال : لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه ، قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر ، وهو إنما يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة في الوعيد . كالأشعري ، والقاضي أبي بكر وغيرهما ، وليس كذلك ؛ فإن هؤلاء إنما وقفوا فى أخبار الوعيد خاصة ؛ لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة ؛ وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية لله . كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري فى ذلك ، وهو قول أئمة أصحابه ، لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية ؛ بل فيهم من ينفيها ومنهم من يقف فيها كالرازي والآمدي ، فيمكن أن يقال : قول الأشعري ينتزع من قول هؤلاء

بأن يقال : لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ؛ لـكن يقال : المعـاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث ؛ ولـكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به .

وفى « الحقيقة » فجميع الأدلة اليقينية توجب علماً ضرورياً ، والأدلة السمعية الخبرية توجب علمـاً ضرورياً بأخبار الرسول ؛ لـكن منهـا ما تـكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل بـه علم ضروري من غير تعيين دليـل ، وقد يعين الأدلة ويستدل بهـا ، وبسط هـذا له موضع آخر .

و « المقصود هنا » أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهيـة الدينية سمعيها وعقليهـا ، ويجعل ما جاء بـه هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا ، فدلائل النبوة عامتها تدل على ذلك جملة ، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة فى القـرآن والحديث تدل على ذلك تفصيلا .

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه .

وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم ،

والخطأ مع مخالفيهم ، كما قال الرازي — مع أنه من أعظم الناس طعناً فى الأدلة السمعية ، حتى ابتدع قولاً ما عرف بـه قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ، ومع هذا فإنه يقول — لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى الإثبات (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ) واقرأ في النفي : (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ) (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا) قال : ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى .

وأيضاً فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وإخبارهم وجدهم كلهم حائرين ، ضالين شاكين مرتابين ، أو جاهلين جهلا مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين فى القرآن (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

فصـــــل

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، هم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات : يتمسكون بما هو بدعة فى الشرع ومشتبه فى العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد قال : هم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجون بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم .

والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجوا به اعتضاداً لا اعتماداً ، وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ، ويقولون : نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم .

وعمدة الطائفتين فى الباطن غير ما جاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول ،

ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون فى العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ؛ وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ، كالنصارى ، والخوارج ، وغيرهم ؛ إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما ، وجعلوا المحكم متشابهاً .

وأما أولئك ــ كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، وكالفلاسفة ــ فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء وإن كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه ؛ ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرها كطائفة من أصحاب أحمد : أن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين وسبعين فرقة ، قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى : (مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ) فى المتشابهات قولان :

« أحدهما » أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

و « الثانى » — وهو الصحيح — أن التشابه أمر نسبي ، فقد يتشابه عند هذا مالا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ؛ بل القول كله محكم ، كما قال : (أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ) وهذا كقوله : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » وكذلك قولهم : (إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا) .

وقد صنف أحمد كتابا في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء فى تفسيرها ؛ مثل الآيات التى سأل عنها نافع ابن الأزرق ابن عباس قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت ، وماذا عنى بها .

ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء أشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعده فى الجنة لأوليائه .

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله : (إنا) و (نحن) ، وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ؛ لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه : (إياي) وما قيل فيه (إنا) لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه ؛ إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول : فإيانا فاعبدوا ، ولا إيانا فارهبوا ، بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) ونحو ذلك ، مع أن تأويل هذا — وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم — لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ، ويعرف برهانه ودليله إما العقلي ، وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ : يحتمل كذا وكذا ، ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما

يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد .

وهذا مثل لفظ « المركب » و « الجسم » و « المتحيز » و « الجوهر » و « الجهة » و « العرض » ونحو ذلك ، ولفظ « الحيز » ونحو ذلك ، فإن هـذه الألفاظ ، لا توجد فى الكتاب والسنـة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ؛ بل ولا فى اللغة أيضاً ، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعانى بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل ما دل عليـه القرآن : بالأدلة العقليـة والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحـق من البـاطل ، وعرف وجه الـكلام على أدلتهم ، فإنهـا ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك فى إحدى المقدمتين بمعنى ؛ وفى المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفـظ دليل ، وفى المعنى ليس بدليـل ، كمن يقول : سهيل بعيد مـن الثريا ، لا يجوز أن يقترن بهـا ، ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل . ثم قال :

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا مـــا استقلت　　　وسهيل إذا استقل يمـــان

وهذا لفظ مشترك ، فجعـــل يعجبه ، وإنـــكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الـكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع .

والأصل الذى بنى عليه نفاة الصفات وعطلوا ما عطلوه حتى صـار منتهاهم إلى قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى فى أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العـــالم بأن الأجسام محدثـــة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ، ولم تسبقهـــا ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهـــذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة فى ذم الجهمية ، وفى ذم هؤلاء المتكلمين .

والسلف لم يذموا جنس الـكلام . فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستـــدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاما هو حق : بل ذمـــوا الـــكلام الباطل ، وهو المخالف للـكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل . فالـــكلام الذي ذمه السلف هو الـكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل .

ولكن كثير من الناس خفى عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل ، حتى اعتقد أن إبراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الإيمان أو لا يتم إلا به ؛ ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد ؛ بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل ؛ لكنه طويل أو يبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة ، وأنه صحيح فى نفسه .

وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك ؛ إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس فى الوجود قديم ، وهذا مكابرة ؛ فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث وإما قديم والحادث لا بد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ما ابتدعه فى هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك فى غير هـذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس في الوجود موجـود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقاً لإثبات الواجب بنفسـه ، كما يجعل أولئك هذا طريقاً لإثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب فليس في واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة .

ولهذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقـديم هو العالم بنفسه ، وقالوا : هو الله . وأنكروا أن يكون للعـالم رب مبـاين للعالم ؛ إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسـه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هـذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب ، لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم ؛ بل يظنون أنهم أقاموا الدليـل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

ولكن وصفوه بصفات الممتنع ، فقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار إليه ، ونحو ذلك من الصفـات السلبية التى تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنـه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود . فدليلهم فى نفس

الأمر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً .

فجاء آخرون من جهميتهم فرأوا هذا مكابرة ، ولا بد من إثبات القديم والواجب ، فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، وهؤلاء قالوا : هو عين الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الموجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه ، وأما حقيقة قولهم فهو النفي أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ، ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ؛ ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه فى كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنها   قد حليت بمحاسن الأشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فإن هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ؛ إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله ، فإنه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث

لا يحدث بنفسه ؛ ولهذا قال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ)
وقد قيل : (أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ) من غير رب خلقهم ، وقيل : من غير مادة ، وقيل : من غير عاقبة وجزاء ، والأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها ، من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء نازع فى هذا وهذا ، ولم ينازع فى الأول . طائفة قالت : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه ؛ بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، وأما أن يقول : إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة ، وإنما يحكى عمن لا يعرف .

ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد فى عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس ، وفي بعض الأمور ؛ ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية فى كل شيء ، هذا لا يتصور ؛ فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث .

وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أوكل ما قامت به صفة أو

فعل بمشيئته ، فهو محدث وممكن لزمهم القول بحدوث كل موجـود ؛ إذ كان الخالق جـل جلاله متصفاً بما يقوم به من الصفـات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ؛ لـكن هؤلاء اعتقدوا انتفـاء هذه الصفات عنه ؛ لاعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ؛ لأن ذلك لا يخلو من الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهـو حادث ، وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب ، وأنه ذات مجردة عن الصفات ، ووجوده مطلق لا يشار إليه ولا يتعين . ويقولون : هو بلا إشارة ولا تعيين ، وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له فى الخارج ، وإنما هو فى الذهن ، فـكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق فى الأذهان لا فى الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع .

فجاء إخوانهم فى أصـل المقـالة . وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات هو الوجود الساري فى الموجودات ، فقـالوا بحلوله في كل شيء .

وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ، ومنهم من فرق بين التعيين والإطلاق ، ومنهم من جعله فى العالم كالمادة فى الصورة ، ومنهم من جعله فى العالم كالزبـد فى

اللبن وكالزيت والشيرج في السمسم والزيتون ، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » أن الأصل الذي أضلهم قولهم ما قامت به الصفات والأفعال ، والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا : والجسم لا يخلو من الحوادث ، وأثبتوا ذلك بطرق ، منهم من قال : لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ومنهم من قال : لا يخلو عن الحركة والسكون فقط ، ومنهم من قال : لا يخلو عن الأعراض ، والأعراض كلها حادثة ، وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكون .

وقد بسط الكلام على هذه الطرق ، وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وذكرنا فى ذلك كلامهم هم أنفسهم فى فساد جميع هذه الطرق ، وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم ممن يقول بأنه جسم قديم فقد شاركوهم فى أصل هذه المقالة ؛ لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ، ولا

قالوا : إن الجسم لا ينفك عن الحوادث ؛ إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو خال من الحوادث ، وقد قيل : أول من قال فى الإسلام أن القديم جسم هو هشام بن الحكم ، كما أن أول من أظهر في الإسلام نفي الجسم هو الجهم بن صفوان .

وكلام السلف والأئمة فى ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض التجسيم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وإسحاق بن راهويه وغيرهما ، قالوا : المشبهة الذين يقولون : بصر كبصري ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التى لا تتعلق بمشيئته وقدرته [فأما التى تتعلق بمشيئته وقدرته] فينفونها ، قالوا لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

و « محمد بن كرام » كان بعد ابن كلاب فى عصر مسلم بن الحجاج أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ، ويتكلم بمشيئته وقدرته ؛ ولكن عنده يمتنع أنه كان فى الأزل متكلماً بمشيئته وقدرته ؛ لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف إنه لم يزل متكلماً إذا شاء بل قال : إنه صار يتكلم بمشيئته وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك . وقال هو وأصحابه في المشهور عنه :

إن الحوادث التى تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها ؛ لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلا لحدوثها وزوالها ، وإذا كان قابلا لذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط ، كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ، ولا يلزم من ذلك أنها لم تخل منه كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلا لها ، والحدوث عندهم غير الإحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محدث ؛ لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث .

وهم إذا قالوا : كان خالياً منها فى الأزل وكان ساكناً لم يقولوا إنه قام به حادث ؛ بل يقولون السكون أمر عدمي كما يقوله الفلاسفة ؛ ولكن الحركة أمر وجودي ؛ بخلاف ما يقوله [من يقوله] من المعتزلة والأشعرية : إن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ، فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به وهذا ممتنع ، وهم يقولون : إنه يمتنع عدم الجسم وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وإفناؤها ، فالحوادث التى تقوم بهم تقوم به لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء ، فكان قابلا لأن يحدث فيه حادث ويفنى ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلابية ؛ لكن المعتزلة يقولون :

السكون ضد الحركة فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر . وهؤلاء يقولون : السكون ليس بضد وجودي ؛ بل هو عدمي ، وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناء ، فلو قبل قيام الإحداث والإفناء به لكان قابلا لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده .

وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الآمدي تناقضهم من وجوه كثيرة . قد ذكرت فى غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول : إنه تقوم به الحوادث وتزول ، وإنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم فى ذلك قولان ، وإلا فالقول بفناء الصوت الذي كلم به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية ، يقول : إنه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم ، وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث ، وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهة .

وإنما أوقع هذه الطوائف فى هذه الأقوال ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلا وشرعا ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ،وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا . بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم ، من الفلاسفة والدهرية والملاحدة بسبب غلطهم فى هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ؛ ولكن ضيعوا الأصول فحرموا الوصول ؛ والأصول اتباع ما جاء به الرسول .

وأحدثوا أصولا ظنوا أنهـا أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين : مثل البناء والشجرة . فقال فى المؤمنين والمنافقين :

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

وقال : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) والأصول مأخوذة

من أصول الشجرة وأساس البناء ؛ ولهذا يقال فيه: الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء ، كما قيل :

أيها المغتدى لتطلب علما كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح حكما ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وهذه الأصول ينبنى عليها ما فى القلوب ، ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التى فى قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التى فى قلوب الكافرين . و (الكلمة) هي قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتي فوانح الكلام وخواتمه وجوامعه ؛ فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة فى قلوب المؤمنين — وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية — كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فأصل أصول الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها فى السماء (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ والله سبحانه مثل الكلمة الطيبة ، أي : كلمة التوحيد ، بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت فى قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهي ثابتة فى قلب ثابت ، كما قال يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان فى قلبه ثابت مستقر ، وهو فى نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، و الكلمة الخبيثة ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ استؤصلت واجتثت ، كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ لا مكان تستقر فيه ولا استقرار فى المكان ؛ فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى : ﴿ بِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴾ وقال : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا ﴾ . ويقال : فلان ماله قرار أي ثبات ، وقد فسر القرار فى الآية بهذا وهذا ، فالمبطل ليس قوله ثابتاً فى قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر ، كما قال تعالى فى المثل الآخر : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه ، كالذي يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله .

وكذلك الأفعال الباطلة التى يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض مالها

من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فـرع فى السماء يوصله إلى الله ، فإنه سبحانه (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول ؛ لأنه ضيع الأصول ؛ ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) .

والله سبحانه بعث الرسـل وأنزل الكتب : بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه بـه رسله ؛ ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غـير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، ومـا عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته .

والله سبحانه قد ذكر هذه الـكلمة (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) في ثلاث مواضع ؛ ليثبت عظمته فى نفسه ، وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على

رسله ، فقال في الزمر : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) الآية . وقال فى الحج : (ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) وقال فى الأنعام : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) .

وفى المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره ، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته ، وأن يجاهد فيه حق جهاده ، قال تعالى : (وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ) وقال : (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ) والمصدر هنا مضاف إلى المفعول ، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التى أمركم بها ، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر ، وأطيعوه فيما أوجب وأمر . وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه ، قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

ودلت الآية على أن له قدرا عظيما ؛ لا سيما قوله : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ) وفى تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت في الصحيحين مـن حديث ابن مسعود أن النبي صـلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ، لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمـل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبـع ، والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا وتصديقا لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ! ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ؟ والأرض على ذه ، والجبال والماء على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟ فأنزل الله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ) رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس ، وقال غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحـبر ، فإن الذي فى الآية أبلغ ، كما فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : « يطـوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟

أين المتكبرون ؟ » ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى .

وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ، ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير ، قال : تكلمت اليهود فى صفة الرب تبارك وتعالى ، فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه : (وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) فجعل صفته التى وصفوه بها شركا .

وقال : حدثنا أبي ، ثنا أبو نعيم ، ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن ، قال : عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه ، فأنزل الله تعالى على نبيه : (وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ) وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه ، وانهم لم يقدروه حق قدره .

وقوله : (عَمَّا يُشْرِكُونَ) فكل من جعل مخلوقا مثلا للخالق فى شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق فى شيء من الأشياء فعدل بربه . والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمى له ولا مثل له ، ومن

جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشرك .

والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع ؛ لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو مالم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ماذكر الله تعالى ، وليس لله صفة يماثله فيها غيره ؛ فلهذا لم يجز أن يستعمل فى حقه قياس التمثيل ، ولا قياس الشمول الذي تستوي أفراده ، فإن ذلك شرك ؛ إذ سوى فيه بالمخلوق ؛ بل قياس الأولى . فإنه سبحانه ﴿ لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص .

وقد بسطت هذه الأمور فى غير هذا الموضع ، وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتا مجردة فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية . والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بذلك حدوث شيء ، كما قد بين في موضعه .

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص ألبتة ، فإنه

ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو فى نفس تلك الصفة .

فإن كان مثبتا لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التى تنفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيما وقولا باطلا فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب قيل له : وكذلك هذا . وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم. قيل : وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له فى الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حيا عالما قادراً ، وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسما كان إثبات أن له علماً وقدرة ، كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائما بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسما ، وإن قال : لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي . قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقا ثابتا موجوداً ، وإما أن يكون باطلا معدوماً .

وأيضاً فإن كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به ، مثل أن تقول : رب العالمين ، أو القديم الأزلي ، أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحينئذ فقد أثبت حيا موجوداً قائما بنفسه ، وأثبته فاعلا وأنت لا تعرف ما هو كذلك إلا الجسم .

وإن قدر أنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهود ، فإن كان قديما أزليا موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقا مصنوعا فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديما أزليا ؛ فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلي على كل تقدير . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وهنا قد نبهنا على ذلك ، هو أنه كل من بني تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفي الجسم فإنه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلا بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفي التركيب .

ومن تدبر ماذكروه في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا هم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه مالا يجوز عليه ؛ إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلا ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك ، وهم متناقضون فيه لو

كانوا أقاموا دليلا على نفي كونه جسما . فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلا وتناقضوا ؟!.

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة ، فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ؛ لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية ، ومما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ؛ لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية ، وليس فيها علم أصلا ؛ ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر ، وبيان تناقضه .

ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ، كما فعل القاضي أبو بكر فى هداية المسترشدين وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وكانوا أحيانا يذكرون له بعض الصفات ، كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : (إن الله فقير) وأن يده مغلولة وغير ذلك ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم قط إنهم يجسمون ، ولا أن فى التوراة تجسيما ولا عابهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة .

فتبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل ، وأنهـا مخالفة لما بعث الله به رسوله ، ولمـا فطر عليه عباده ، وأن أهلهـا من جنس الذين (قَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) .

وقد بينـا فى غير هذا الموضع فساد ماذكره الرازي من أن طريقة الوجوب والإمكان من أعظم الطرق ، وبينا فسادها وأنها لا تفيد علماً ، وأنهم لم يقيموا دليلا عـلى إثبات واجب الوجود ، وأن طريقة الـكمال أشرف منها وعليها اعتـماد العقلاء قديماً وحديثاً ، وهو قـد اعترف فى آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية ، والمناهـج الفلسفية ، فما وجدهـا تشفى عليـلا ، ولا تروى غليـلا ، ووجـد أقرب الطرق طريقة القرآن .

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلـكها أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محـدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ؛ ليمكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدمه وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغـير سلفه ، وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر فى المنطق ما ذكره سلفـه من أن الممكن لا يكون إلا محدثا ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

ثم إن هؤلاء الذين سلـكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون ؛ فإن

فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق ، وإن أثبتوه قالوا إنه لا يتكلم ، ولا نادى أحداً ولا ناجاه .

وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم . وفى نفي كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحله الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل ؛ فحقيقة قولهم يناقض شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هي كلامه الذي بعثه به ، فإذا لم يكن متكلما لم تكن رسالة .

ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاما يقوم بذاته لم يقل إنه يتكلم ، والنفاة منهم من يقول : الكلام صفة فعل بمعنى أنه مخلوق بأن عنه ، ومنهم من يقول : هو صفة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته ، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكل طائفة مصيبة فى إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال : إنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته وهذا حق ، وأدلة من قال إنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما

كمن قال إن كلامه مخلوق أو قال إنـه لا يتـكلم بمشيئته وقدرته فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتـكلم ، ولا أثبتوا له كلاما ؛ ولهـذا يقولون : مالا يعقل . هذا يقول : إنه معنى واحد قام بالذات ، وهذا يقول: حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته وهذا يقول: مخلوق بائن عنه .

ولهـذا لما ظهر لطائفـة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة حاروا وتوقفوا ، وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونـه مخلوقا أو بحرف وصوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا .

ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها هو معرفة ما جاء به الرسول ، وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم ، لاسيما والقلوب تطلب معرفة الحق فى هذه بالفطرة ، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها .

وهؤلاء يذكرون هذا الوقف فى عقائدهم ، وفيما صنفوه في أصول الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام قد صنفوا فى أصول الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا فى « مسألة القرآن » وهل هو مخلوق؟ أو قديم ؟ أو هو الحروف والأصوات ؟ أو معنى قائم بالذات ؟ نهوا عن هـذه الأقوال ، وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله

المسلمون كلهم : أن القرآن كلام الله ، ويمسك عن هذه الأقوال .

وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة : قول المعتزلة ، والكلابية ، والسالمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفى كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولا غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع ، كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسما بهذه الطريقة ، وذلك نفى عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالاً بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والله سبحانه قد أخبر أنه (أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ؛ فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ؛ فإن كان قد قدح فيهم

ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلى في عقله وعلمه ، وظهر من جهله ما عوقب به .

ومن قال: عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه، ومن قال: إنهم جهال أظهر الله جهله ، ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى إنه ساحر كذاب أخبرالله بذلك عنهم فى قوله : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)وطلب فرعون إهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب ، كقوله : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) .

وقال : (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأذله غاية الإذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ؛ فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه أبا جهل ، وهو كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

والذين قالوا عن الرسول إنه أبتر وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم ، كما قال تعالى : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) فلا يوجد من شنأ الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته . قيل لأبي بكر بن عياش إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة ،

فقال : من جلس للناس جلس الناس إليه ، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم .

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات ، الذين وافقوا فرعون فى جحده ، وقالوا إنه ليس فوق السموات ، وإن الله لم يكلم موسى تكليماً ، كما قال فرعون : (يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا) .

وكان فرعون جاحداً للرب ، فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال : (فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا) قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) وقال تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لما عرج به إلى ربه وفرض عليه الصلوات

الخمس ، ذكر أنه رجع إلى موسى ، وأن موسى قال له : ارجــع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك ، كما تواتر هــذا فى أحاديث المعراج ، فموسى صدق محمداً فى أن ربه فوق ، وفرعون كذب موسى فى أن ربه فوق ، فالمقــرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون .

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهي مما اعتمد عليهــا أبو الحسن الأشعري في كتابه « الإبانة » وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية ، على أن الله فوق العــالم وقال فى أوله :

فإن قال قائل : قد أنــكرتم قول الجهمية ، والقدرية ، والخوارج والروافض ، والمعتزلة ، والمرجئة ، فعرفونا قولـكم الذي به تقولون ، وديانتكم التى بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينــا ، وما جاء عن الصحابة والتابعــين ، وأئمة المسلمين ، وبمــا كان يقول بــه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولمــا خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الـكامل ، والرئيس الفاضل ، الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ؛ فرحمه الله من إمام مقدم

وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين . وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش ، وعلى الرؤية ومسألة القرآن ونحـو ذلك ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنــا » أن المعطلة نفاة الصفـات أو نفاة بعضهـا لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ؛ إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الإثبات لا النفي ؛ لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ، ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول .

وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر فى ذلك ما يرجع إليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب فى ذلك على زعمهم ، بخلاف غير هذا ، فإنهم معترفون بأن الرسول ذكر فى القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب ، وعلى صدق الرسول .

وقد يقولون أيضاً : إنه أخبر بالمعـاد ؛ لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكروه من النفي لم يذكره الرسول ، فـلم يخبر به ولا ذكر دليلا عقلياً عليه ؛ بل إنما ذكر الإثبات ، وليس هو فى نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض ، فلمـا نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، لا خبر يبين الحق

ولا دليل يدل عليه عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع ، مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية ، من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد ، الذين يقدحون فى العقليات والسمعيات .

وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ، فإذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وكما قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)

فلما كان حقيقة قولهم أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي سلبهم الله فى هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية ، حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

وقد قيل : إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون هو الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال : أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، إني مضح بالجعد بن درهم ، أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه ، وشكر له علماء المسلمين ما فعله ، كالحسن البصري وغيره .

وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بني أمية ، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة ؛ فإنه إذا ظهرت البدع التى تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل ، وانتصر لهم ؛ ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون « إنكار الصانع وإنكار عبادته » وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض فكان خيارهم وأقربهم إلى الإسلام الرافضة وظهر بسببهم الرفض والإلحاد ، حتى كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان الغالية ونحوهم متشيعين ؛ وكذلك من كان من بني بويه فى المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم ، قال : وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ، ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ؛ ولهذا سمي حينئذ بأمير المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى

بهذا الاسم ، ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولي المقتدر قال هذا صبي لا تصح ولايته فسمي بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم باطلا كدينهم ؛ بخلاف الأموي والعباسي فإن كلاهما نسبه صحيح ، وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء ، إلى أن أخذوا بيت المقدس فى أواخر المائة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة ؛ إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم ، وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بنى عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن سادي ، وخطب بها لبنى العباس ؛ فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة.

فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الإلحاد والبدع سلط عليهم الكفار، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار؛ تحقيقاً لقوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ).

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سلط عليهم الكفار، قال تعالى: (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـࣳٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ

تَتْبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) .

وكان بعض المشايخ يقول : هولاكو ـــ ملك الترك التتار الذي قهر الخليفة بالعراق ، وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال : قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ ، كان بعض الشيوخ يقول هو ـــ للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبنى إسرائيل .

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى أنه صنف الرازي كتابا في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر ، سماه « السر المكتوم فى السحر ومخاطبة النجوم » ويقال : إنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه ، وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازي به اتصال قوي ، حتى أنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتابا سماه « الرسالة العلائية فى الاختيارات السماوية » .

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التى علمها النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين ، كما قال جابر فى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا

الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ، من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه باسمه خير لي في دينى ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضنى به »

وأهل النجوم لهم اختيارات إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلا أخذ طالعاً سعيداً ، فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتباً فى الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذبا ، وكم يأمرون باختيار فيكون شراً ، والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في « السر المكتوم » في عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها ، والشرك بها ودعائها ، مثل ما يدعو الموحدون ربهم ؛ بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ، فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ، ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله .

وهذا فى نفس الأمر يقرب إلى الشياطين ، الذين يأمرونهم بذلك ويقولون لهم : إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله ، لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصي ، ولكن الشياطين هي التى تأمر بذلك ، ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة وإنما هي شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق بسبب مثل هذا الملك ونحوه ، ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار ، فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله به فى كتابه ، حيث يقول : (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ) أي أن القرآن حق ، وقال : (سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) وبسط هذا له موضع آخر .

و « المقصود هنا » أن دولة بنى أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب ، التى أوجبت إدبارها ، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان ، وقد قيل : إن أصله من ترمذ وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية . وقد قتل فى بعض الحروب . وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق ، ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام فى الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع أن عامة

أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق . لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق ، وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولى الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ، ودعا إلى قولهم فى آخر عمره ، وكتب إلى بغداد وهو بالثغر بطرسوس التى ببلدسيس — وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد رضي الله عنه ، والسري السقطي ، وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضاً صالح بن أحمد بن حنبل ، ولهذا ذكرت فى كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيما ، فكتب من الثغر — إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتابا يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : القرآن مخلوق ، فلم يجبه أحد ، ثم كتب كتابا ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه فأجاب أكثرهم ، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ؛ فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه ، ثم أوصى إلى أخيه أبى إسحاق ، وكان هذا سنة ثماني عشرة ومائتين ، وبقي أحمد فى الحبس إلى سنة عشرين فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب

النفاة الجهمية ، وامتحنوا الناس فصـــار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات ، ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه وإلالم يفتدوه .

وكتب قاضيهم أحمد بن أبي دؤاد على ستارة الكعبة (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم) ، لم يكتب وهو (السميع البصير) ،

ثم ولي الواثق واشتـد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنـة وظهرت حينئذ السنة ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه ، حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكى كلام اليهود والنصـارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة   إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا يعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، قيل له : بحد ؟ قال : بحد . وكذلك قال أحمد بن حنبـل ، وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وغـيرهم من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ، ويقول : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي) ويقول لموسى (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) ويقول : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أو يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع .

فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته وإنكار كلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ، ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق ؛ بل هو عندهم فرقان .

ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ؛ ويعيبون على نوح وعلى إبراهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ، ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وأن الله نفسه هو العابد وهو المعبود ، وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ،

وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره .

وقد ضل فى هذا جماعة لهـم معرفة بالـكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين والصدر القونوي تلميذ ابن عربى ، والبليانى والتلمساني ، وهو من حذاقهم علما ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل ، فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحـكم » لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن ، قال فقلت له : هـذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كلـه شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنـا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثنى من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم ، فقال له رفيقه : هـذا أيضاً هو ذات الله ؟ فقال : وهل ثم شيء خارج عنها ؟ نعم ! الجميع فى ذاته ! .

وهؤلاء حقيقة قولهـم هـو قول فرعون ؛ لكن فرعون ما كان يخاف أحداً فينافقه فلم يثبت الخالق ، وإن كان في الباطن مقراً بـه ، وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق ؛ لكن حب العلو في الأرض والظلم

دعاه إلى الجحود والإنكار ، كما قال : (فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ) .

وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين . فــلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم عـلى حق ، وأن الخالق هو المخلوق فكان قولهـم هو قول فرعون ، لكن فرعون كان معانـداً مظهـراً للجحود والعنـاد ، وهؤلاء إما جهـال ضـلال ، وإمـا منافقون مبطنون الإلحـاد والجحود ، يوافقون المسلمـين في الظاهر ،

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ، ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاما ، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعـلم . قال : فدعاني إلى هذا المذهب فقلت له : قولـكم يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون ! فقلت لعبد السيد واعترف لـك بهذا ؟ قال نعم ! وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب ، فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون ؛ فحدثني بهذا فقلت له ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج إلى بينة . قال عبد السيد فقلت له : لا أدع موسى وأذهب

إلى فرعون ، فقال : ولم ؟ قلت : لأن موسى أغرق فرعون فانقطع ، واحتج عليه بالظهور الكوني ، فقلت لعبد السيد ــ وكان هذا قبل أن يسلم ــ نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعوني .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه ، وهم يحسبون أنه حق ، وعامتهم ـ الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله ، وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ـ لا يفهمون حقيقة قولهم ؛ بل يحسبون أنه تحقيق ماجاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون فى حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وإن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتى خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة ، يخرجون أقوال المتفلسفة والجهمية في قالب الكشف .

وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكا يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال؛ فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول .

وهم يعظمون فرعون . ويقولون ماقاله صاحب « الفصوص » قال : ولما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه جار فى العرف الناموسي ؛ لذلك قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) أي وإن كان الكل أربابا بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك . وقالوا له : (فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ) قال : فصح قول فرعون (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) وإن كان فرعون عين الحق .

وحدثنى الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له ، وقالوا هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر . قال : فقلت له محمد بن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر ، فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه ، قال فقالوا لي : محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به ، قال :

فتناقضوا في مذهبهم الباطل ، وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق ، قال لي : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا » فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً — لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء — وقد صنف كتابا سماه « فك الأزرار عن أعناق الأسرار » ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس ، وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا ، لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ منكم ، فإني تجليت له فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فسجد لي فتعجبت كيف سجد لي . قال هذا الشيخ : فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى فى الوجود اثنين وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لإبليس لا يميز

بين الرب وغيره ؛ بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربي نوحاً أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه فى السفينة ، وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوه ؛ فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ماعبدوا إلا الله ، وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار ، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وغيرهم .

ومدح عباد العجل ، وتنقص هارون وافترى على موسى . فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هارون ؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه ، وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه ؛ فإن العارف من يرى الحق فى كل شيء ؛ بل يراه عين كل شيء ، فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فأنكره ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شيء ؛ بل يراه عين كل شيء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهارون ، وعلى الله ، وعلى عباد العجل ؛ فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هارون ، وأنه أخذ بلحية هارون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفته . قال تعالى : (وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي * قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا * وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي * قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي * قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي) .

قلت لبعض هؤلاء هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى

وهارون يوافق القرآن أو يخالفه . فقال : لا بل يخالفه ، قلت : فاختر لنفسك إما القرآن وإما كلام ابن عربي .

وكذلك قال عن نوح قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه ، أي ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً إلى أن قال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ؛ لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية (أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ) فهذا عين المكر (عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) فنبه أن الأمر كله لله فأجابوه مكراً كما دعاهم ، فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي من حيث هويته ، وإنما هي من حيث أسمائه ، فقال : (يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا) فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم فعرفنا أن العالم كان تحت حيطة اسم إلهي أوجب عليهم أن يكونوا متقين ، فقالوا فى مكرهم : (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله ، كما قال فى المحمديين : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) أي حكم ، فالعارف يعرف من عبد ، وفى أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود .

وهو دائماً يحرف القرآن عن مواضعه . كما قال في هـذه القصة : (مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ) فهي التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهي الحيرة ، (فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا) فى عين الماء في المحمديين ، (وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ) سجرت التنور أوقدته (فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا) فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد ، وقوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) بمعنى أمر وأوجب وفرض . وفى القراءة الأخرى (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ، فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا إياه ، وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير الله قط ، وهذا من أظهر الفرية على الله ، وعلى كتابه ، وعلى دينه ، وعلى أهل الأرض .

فإن الله فى غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غـير الله ؛ بل يعبدون الشيطـان ، كما قال تعـالى : (أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَـٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَـٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ)

وقال تعالى عن يوسف أنه قال : (يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَـٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ) وقال تعـالى :

(وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ) ؟ .

وقال تعالى عن الخليل : (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) .

فهو سبحانه يقول : (فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)

وهؤلاء الملحدون يقولون : ما عبدنا غير الله فى كل معبود .

وقال تعالى : (وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا

لَهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) إلى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ) .

قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفترون ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل إنما يقودون قولهم إلى فرية على الله ، وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول إنه يحل فيه ، وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق ، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان ، ثم اتحد أحدهما بالآخر ، كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا إنما يقال فى شيء معين .

وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده ، وهم من أعظم الناس تناقضا ، فإنهم يقولون ما ثم غير ولا سوى ، وتقول السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله ، ثم يقولون

هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا . فإذا كان ما ثم غير ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب ؟ ومن الذي ليس بمحجوب وعم حجب ؟ فقد أثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمرا انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك .

فأين هذا من قولهم ما ثم اثنان ولا وجودان ؟ كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وابنته؟ قال : نعم ! الجميع عندنا سواء ؛ لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، فقيل لهم : فمن المخاطب للمحجوبين أهوهم أم غيرهم ؟ فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين وعندهم ما ثم غير .

وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين ، فإنه يقال : الوجود واحد ، كما يقال : الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة ، أي يعنى واحد كلى وهذا الكلى لا يكون كلياً إلا فى الذهن لا فى الخارج ، فظنوا هذا الكلى ثابتا في الخارج ، ثم ظنوه هو الله ، وليس في الخارج كلى مع كونه كليا وإنما يكون كليا فى الذهن وإذا قدر فى الخارج كلى فهو جزء من المعينات وقائم بها ، ليس هو متميزا قائما بنفسه ، فحيوانية الحيوان وإنسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له . ولو

قدر وجودها مجردا عن العيان على رأي من أثبت « المثل الأفلاطونية » فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ، ويدعى أنها قديمة أزلية ، مثل إنسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل .

وهذا الذي جعله مجردا هو مجرد فى الذهن وليس فى الخارج كلي مجرد ، وإذا قدر ثبوت كلى مجرد فى الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها ، كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعا لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حي عليم قدير ؛ إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بد أن يكون حيا عليما قديرا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة ، فقد ثبت وجودان أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم فى نفسه وفنى وليس كذلك ، فإن ماعدم وفنى شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعدوم الفانى صفة هذا الشخص . وإلا فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علما بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهودا للعدم؛ ولكن هذه الحال يعتري كثيرا من السالكين

يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات ، وقد يسمون هذا فناء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات ؛ لا أنها فى نفسها فنيت ، ومن قال : فنى ما لم يكن وبقى ما لم يزل ، فالتحقيق — إذا كان صادقا — أنه فنى شهوده لما لم يكن ، وبقي شهوده لما لم يزل ، لا أن ما لم يكن فنى فى نفسه ، فإنه باق موجود ؛ ولكن يتوهمون إذا لم يشهدوه أنه قد عدم فى نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة فى الاتحاد والحلول ، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق فى ذلك فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه فنيت حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال : ما فى الجبة إلا الله .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور :

« أحدها » أنه يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه . وبمحبته وطاعته

وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه ، وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله بـه الرسل ، وأنزل به الكتب ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فقد فني من قلبه التأله لغير الله ، وبقي في قلبه تأله الله وحده ، وفنى من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله ، وبقي فى قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله .

وهذا الفناء يجامع البقاء ، فيتخلى القلب عن عبادة غـير الله مع تحلي القلب بعبادة الله وحده ، كما قال صلى الله عليه وسلم لرجل « قل : أسلمت لله وتخليت » وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفي مع الإثبات ؛ نفي إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحـده ، فإنه ليس في الوجود إله إلا الله ، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله ؛ فيجب أن يكون هذا ثابتاً في القلب ؛ فلا يكون فى القلب من يألهه القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده ؛ إذ كان ليس ثم إله إلا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لـكل معبود سواه ولمن عبدهم ، قال تعالى عن الخليل عليه السلام : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ

ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) . وقال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) .

قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل : (إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) ممن تبرأ الخليل ، أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعله الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، قال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وهذا تصديق قوله تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ) وقال تعالى : (فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ)
وقال سبحانه : (كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ) قال طائفة من السلف كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، وقد قال سبحانه : (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ) .

و « الإله » هو المألوه أي المستحق لأن يؤله أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال ؛ بمعنى المركوب والمحمول . وكان الصحابة يرتجزون فى حفر الخندق يقولون :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وإذا قيل : هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به ، كما قال تعالى لإبراهيم : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا

يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ) فعهده بالامامة لا ينال الظالم . فالظالم لا يجوز أن يؤتم به فى ظلمه ، ولا يركن إليه كما قال تعالى : (وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ) فمن ائتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل مع الله إلهاً آخر ، وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى : (لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ)

وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن « الإله » بمعنى الفاعل ، وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون .

فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون فى أمور لكن إمامهم ابن عربي يقول : الأعيان ثابتة فى العدم ووجود الحق فاض عليها ؛ فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهاً . فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين ومعنى مألوهين عنده مربوبين وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم . وفى كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية مالا يحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

و « التحقيق » أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء فى الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره

ويخبر به فيكون سبباً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج ، كما قال : (إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) . والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه فهو الذي (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ) وهو (ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ) ولو قدر أن الإله بمعنى الرب فهو الذي جعل المربوب مربوبا فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوهاً ، والمربوب لم يجعله ربا ، بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوبا ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله ربا ولم يبغ ربا سوى الله ولم يتخذ ربا سواه ، كما قال تعالى : (قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ)

وقال تعالى : (قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)

وقال : (وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ) ؟

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره ، فإذا عبده الإنسان فقد وحده من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره قال تعالى : (فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ) وقال تعالى : (لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا) وقال إبراهيم لأبيه آزر : (أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) فالمخلوق ليس بإله في نفسه ، لكن عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً وسماه

إلهاً ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره ، كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلا ؛ فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتى ولا يقضي ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعى ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد .

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعى ، أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء ألبتة وقد قال تعالى : (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) فغير الله لا مالك لشيء ، ولا شريك فى شيء ، ولا هو معاون للرب فى شيء ؛ بل قد يكون له شفاعة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ولكن لاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لايملكون الشفاعة ألبتة ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقا ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

فصـــــل

وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد النـاس عن الاستدلال بمـا جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبينـات والهدى : يبين الأدلة العقليـة ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : إنه لم يفد النـاس علماً بخـبره ولا بدلالته ، وإنمـا خاطب خطابا جمهوريا ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والمعاد اعتقـاداً ينفعهم وإن كان كذبا وباطلا ، وحقيقة كلامهم أن الأنبيـاء تـكذب فيما تخبر به ، لكـن كذباً للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علما ، وإذا لم تـكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقليـة على ثبوت ما أخبروا به .

والمتكلمون ــ الذين يقولون : إنهم لا يخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلـكون فى العقليات غير طريقهم ــ مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المفترين ؟ ولهـذا لا يعتنون بالقرآن ، ولا بتفســيره ، ولا بالحديث ، وكلام السلف ، وإن

تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور بـه ليعيشوا بينهم بذكره ؛ لا لاعتقـادهم موجبـه فى الباطن ، وهـذا بخلاف طوائف المتكلمين فإنهم يعظمون القرآن فى الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع .

ولهذا لما استولى التتار على بغـداد وكان الطوسي منجما لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك . فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمهـا ، وأخـذ كتب الطب ، والنجوم ، والفلسفة ، والعربية ، فهذه عنده هي الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا يافلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهـي ، ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربيـة بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار .

فصـــــل

أول التفرق والابتـــداع فى الإســـلام بعد مقتـــل « عثمان » وافتراق المسلمين ؛ فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا لا حكم إلا لله وفارقوا جماعة المسلمين ، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا عـلى ماشية الناس واستحلوا دماءهم ، فقتلوا ابن خباب وقالوا كلنا قتله فقاتلهم علي ، وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه ، لكن خرجوا عن السنة والجماعــة ، فهم لا يرون اتباع السنة التى يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا ؛ فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً فـلم ينفذوا لحكم النبي ولا لحـكم الأئمة بعده بل قالوا : إن عثمان وعليا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ) فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفـير سائر أهل البدع مبنى على مقدمتين باطلتين .

(إحداهما) أن هذا يخالف القرآن .

و (الثانيـة) أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئاً أو مذنباً معتقداً للوجوب والتحريم .

وبإزائهم « الشيعة » غلوا فى الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع إليهم فى جميـع ما جاءت به الرسل ، فـلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة ؛ بل على قول من ظنوه معصوما ، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معـدوم لا حقيقة له ، فكانوا أضـل من الخوارج ، فإن أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ؛ ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث .

ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحـلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم ، والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا أوصت الملاحدة ـــ مثل القرامطة الذين كانوا فى البحرين وهم من أكفر الخلق ، ومثل قرامطة المغـرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع ـــ أوصوا بأن يدخل على المسلمين مـن باب التشيع فإنهم

يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله » فحض على كتاب الله ، ثم قال : « وعترتي أهل بيتى أذكركم الله في أهل بيتى ثلاثاً » فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون إليهم فانتحلت الخوارج كتاب الله ، وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ؛ فإن الخوارج خالفوا السنة التى أمر القرآن باتباعها ، وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية (وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ) وصاروا يتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غير تأويله ، من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ فى العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن .

وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت فى مواضع

فصـــــل

ثم حدث في آخر عصر الصحابة « القدريـة » فـكانت الخوارج تتـكلم في حكم الله الشرعي : أمره ونهيه ، وما يتبـع ذلك مـن وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهي « مسائل الأسماء والأحـكام » وسموا محكِّـمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال : لا حكم إلا لله قالوا : هو محكم أي خائض في حكم الله ، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل ، وأما « القدرية » فخاضوا في قدره بالباطل .

وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصـاروا حزبين حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهي والوعد والوعيد ، واتباع ما يحبه الله ويرضاه وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصـل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين ، فقطعوا

ما أمر الله به أن يوصل ، وكذلك « القدرية » فصاروا حزبين .

« حزبا » يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه ، أو ينفي بعضه .

و « حزبا » يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه ، وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه ؛ لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليما ، وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالا لما يشاء ، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء خلقوا كخلقه ، كما فعلت المجوس ، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالإحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلالزم أن يكون بخيلا .

كما أن « القدرية المجبرة » قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً

إلا بتسفيهه وتجويره .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس فى الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون : (لَوْشَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) الآية ، وهؤلاء منتهى توحيدهم توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم وأكثر شركا وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين ، وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي صنف فيها مصنفاً ، وابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يصرحون بجواز عبادتها ، وبالإنكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون فى ذلك .

فـ « القدرية » أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته ؛ إذ لو كان قادراً لفعل غير ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر ، وقالوا : نثبت حكمته كما يثبت حكمه ؛ لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه ؛ بخلاف ما لم يقدر عليه فإنه معذور إذا لم يفعله

فلا يلام عليه وقالت : « المجبرة » بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة ؛ لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة ، ولا عدل ولا ظلم بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس فى الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به ، وقبيح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ؛ بل يجوز أن يأمر بكل شيء ، وينهى عن كل شيء .

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية وأنكر النبوات ، مع انه مضطر إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء ؛ فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيصاً ؛ لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة فأنكر الشرع فى الباطن ، وقال : العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة صار منافقاً يظهر خلاف ما يبطن ، ويقول الشرع لأجل المارستان ؛ ولهذا يسمون « باطنية » كما سموا الملاحدة « باطنية » فإن كلاهما يبطن خلاف ما يظهر يبطنون تعطيل ماجاء به الرسول من الأمر والنهي .

فمنتهى الجهمية المجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون يبطنون الشرك ؛ ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً

وأتباعه ، كما قال تعالى : (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) وهم يتعلقون بقوله : (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ) وبأنه (يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ) ، ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب كثر فى عبادهم وعلمائهم من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتد عن الإسلام إما باطناً وظاهراً ، وإما باطناً وقال : إنه مع الحقيقة ، ومع المشيئة الإلهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسل عما [لا] يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة وموالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول ، فتارة تأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار ، لكون المسلمين قد عصوا .

ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراء لهم من الرجال المسمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق تقتضى أنهم أولياء الله صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب .

حزب يكذبون بوجود هؤلاء ؛ ولكن عاينهم الناس ، وثبت ذلك عمن عاينهم ، أو حدثه الثقاة بما رأوه ، [و] هؤلاء إذا رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر ، واعتقـدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجين عن دائرة الرسول فقالوا : يكون الرسول هو ممـــداً للطائفتـين لهؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء معظمون للرسول ، جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون اتباع دين غير دينه وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكا ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن ، وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الإنس أعداء الأنبياء ، كما قال تعـالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) .

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسوون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى فظهر أن

اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

وحضر عندي بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الإسلام، وحدثني بفصول كثيرة ، فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان فى بغداد بضعة عشر بغيّ ، فالجيش الكفار المشركون الذين جاءوا كانوا شراً من هؤلاء ، فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم ، وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ، ودين النصارى ، وتعظيم الصليب ، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ويرضى بهذا ؟ ! فتبين له ، وقال : لا والله ! وأخبرنى عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة في الباطن وتعذبهم إن لم يرتدوا ، فقلت كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادة التى يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل أنهم رجال من رجال الغيب الإنس وكلهم الله بتصريف الأمر ، فبينت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فإن الإنس يؤنسون أي يشهدون ويرون ؛ إنما يحتجب الإنسي أحيانا لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس ؛ بخلاف الجن فإنهم كما قال الله (إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) .

وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن « هولاكو » ملك المشركين لما دخل بغداد رأى ابن السكران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق آخذا بفرس هولاكو قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين ، فقلت : يا هذا أو كلمة نحو هذا ، فقال تأمر بأمر أو قال له : هل يفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر ؟ فقلت : نعم بأمر فسكت ابن السكران ، وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ فى قلوبهم هو من الله ، وأن من قال : حدثنى قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه ، ومن قال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت ، هو كذلك ، وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تأمر ؟ فإن قال : بأمر الله ،

قيل : بأمر الله الذي بعث به رسوله وأنزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك؟ فإن قال : بالأول ظهر كذبه ؛ فإنه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتى بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ، ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ، ويضرب فيها بالنواقيس ، ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ، ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصارى وأمثال ذلك ؛ فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم وهم من جنس مشركي العرب الذين قاتلوه يوم أحد وأولئك عصاة من عصاة أمته ، وإن كان فيهم منافقون كثيرون فالمنافقون يبطنون نفاقهم .

وإن قال : بأمر وقع فى قلبي لم يكذب ، لكن يقال من أين لك أن هذا رحماني ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا ؟ وقد علمت أن ما يقع فى قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان ، فإن رجع إلى توحيد الربوبية وأن الجميع بمشيئته قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ، ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري ، فجميع الخلق داخلون تحته ؛ لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن ، وهو مستوجب لعذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله ، متبع لهواه ، وهو ممن قال الله فيه : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ

ومن قال فيهم الشيطان : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) قال الله : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقال تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

فكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به كما لا يأمر بالفحشاء ؟! فإن هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسما لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة فى الفحشاء .

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك — الشيخ عثمان شيخ دير ناعس — يأتيه خفير الفرنج النصارى راكبا أسداً ويخلو به ويناجيه ، ويقول : ياشيخ عثمان ! وكلت بحفظ خنازيرهم فيعذره عثمان وأتباعه في ذلك ، ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل ، كما عذر ابن السكران وأمثاله خفراء المشركين التتار .

والجواب لهذا كالجواب لذلك ، يقال له : وكلك الله تعالى بهذا ؟

[الذي] أنزل على لسان نبيه الدين أمر أن يوالي المسلمين وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ؛ بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم ؟! فإن قال : هذا ظهر كذبه . وإن قال : بل هو أمر ألقي فى قلبي لم يكذب ، وقيل له: فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله ؛ ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا) .

ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله ولا يجب عليهم اتباع الرسول ، كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل إلى الثقلين الإنس والجن ولم يرسل إلى الملائكة ، فكل إنسي أو جنى خرج عن الإيمان به فهو عدو لله لاولى لله ؛ بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ولا على قتال المسلمين ؛ وإنما يعاونهم على ذلك الشياطين ؛ ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم فإن ذلك ليس بمعصية ، فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة . وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار وكان والده يقال له : « محمد الخالدي » نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد ، وهم يقولون إنه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول الأنبياء ضيعوا الطريق ، ولعمري لقد ضيعوا طريق الشياطين : شياطين الإنس والجن ، وهؤلاء المشايخ : الذين يحبون المسلمين ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوا هم وهم فى أصل ضلالة ، وهو : أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ، ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قال تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)
فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدى به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق السحرة والكهان ؛ إذ هذا « مذهب الجهمية المجبرة »

وهؤلاء كلهم يشتركون فى هذا المذهب فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه ، بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه

ويرضاه ، فبقي جميع الأمور عندهم سواء ، وانما يتميز بنوع من الخوارق فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعا له وإما موافقة له ومحبة ، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه ، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الإيمان ما يعرفون به المعروف وينكرون به المنكر فى هذا الموضع .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وفي رواية لمسلم « من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » ، وميتو الأحياء الذين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً وفى حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم : « إن الفتنة تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تبقى القلوب على قلبين : قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض ، وقلب أسود مرباد لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا

بالأمر والنهي منتهام اتباع أهوائهم (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) لاسيما إذا كانت حقيقتهم هي قول « الجهمية المجبرة » فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت فى المشيئة ولم يميزوا بعضها عن بعض بأن الله يحب هذا ويرضاه وهـذا يبغضه ويسخطه ؛ فإن الله يحب المعروف ويبغض المنكر ، فإذا لم يفرقوا بين هذا وهـذا نكت فى قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم ، فيكون المعروف ما يهوونه ويحبونه ويجدونه ويذوقونه ، ويكون المنكر ما يهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا (عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) ولهذا يوجد فى هؤلاء وأتباعهم مـن ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التى تفر من الرماة ومن الأسد ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا .

وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول — لمن رآه من هـؤلاء كاليونسية والأحمـدية — يا خنازير ! يا أبنـاء الخنـازير ! ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول « القدرية الجهمية المجبرة » أعظم منـاقضة

لما جاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف ؛ بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن « القدرية المجبرة » من جنس المشركين كما أن « النافية » من جنس المجوس ، وأن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر ، والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة ، وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل ، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع .

وأولئك يتعلقون بقوله : (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ) و (ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ) ، وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله ؛ بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء ؛ بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ؛ فإن الله لا مكره له ، ولكن ليعزم المسألة »

وذلك أنه إنما يقال : افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرهاً فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء ، فقوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ) و (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون إنه لم يشأ كل ما كان ، بل لا يشاء إلا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم تكن ممن عصاه ، وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً .

فهذه الآيات التى تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة ، كما أن الآيات التى يحتج بها النفاة التى تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك تدل على فساد قول المجبرة ، وليس فى هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ؛ بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي فى المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر . هذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ » ولهذا قال أحمد فى بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات

بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا .

فمن دفع نصوصا يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال . فصاروا كما قال عن أهل الكتاب : (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ) .

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ؛ بل تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول ، وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به ، وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال صلى الله عليه وسلم : « وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة » وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون تلك هي « الأصول العقلية » كالقدرية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول — وهو الذي يسمونه العقليات — أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع ؛ فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات والأمريات جميعا كالواجبات الشرعية

لكن يقولون أيضا إن الشرع أوجبها ، ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبريات كإثبات حدوث العالم بطريقة الأعراض واستلزامها للأجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ، ويسمون ذلك « التوحيد ، والعدل » .

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفيا منهم فإنهم ينفون الأسماء مع الصفات ، وهم رؤوس المجبرة ، والأشعرية وافقتهم فى الجبر ؛ لكن نازعوهم نزاعا لفظيا فى إثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية — وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الأفعال — هي أعظم العلوم وأشرفها ، وأنهم برزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة : إما لكونه وكلها إلى استنباط الأمة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، وإما لكونه قال لهم فيذلك ما لم يبلغوه ، ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هي « الأصول العقلية » التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي وأبي الوليد الباجي تبعا للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

وكل الأصول العقلية التى ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة فى العقل والشرع ، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها من أعظم الدين ويقدمونها على الأصول الشرعية ، فإنهم فى ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ويفضلونها على العبادات الشرعية ، والعبادات الشرعية هي التى معهم من الإسلام ، وتلك كلها باطلة ، وإن كانت أعظم عندهم من العبادات ، حتى يقولوا : نهاية الصوفي ابتداء الفقيه ، ونهاية الفقيه ابتداء الموله . وكذلك صاحب « منازل السائرين » يذكر فى كل باب ثلاث درجات، فالأولى وهي أهونها عندهم توافق الشرع فى الظاهر ، والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق ، والثالثة فى الأغلب تخالف ؛ لا سيما في « التوحيد » و « الفناء » و « الرجاء » ونحو ذلك . وهذا الذي ابتدعوه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل ، وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض ، وهذا كثير والله أعلم .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه[1]

عن طائفة من المتفقرة يدعون أن للقرآن باطناً ، وأن لذلك الباطن باطناً إلى سبعة أبطن ، ويروون فى ذلك حديثاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « للقرآن باطن ، وللباطن باطن إلى سبعة أبطن » ويفسرون القرآن بغير المعروف عن الصحابة والتابعين والأئمة من الفقهاء ، ويزعمون أن علياً قال : لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب كذا وكذا حمل جمل ، ويقولون : إنما هو من علمنا إذ هو اللدني .

ويقولون كلاماً معناه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خص كل قوم بما يصلح لهم ، فإنه أمر قوماً بالإمساك ، وقوماً بالإنفاق ، وقوماً بالكسب ، وقوماً بترك الكسب . ويقولون : إن هذا ذكرنه أشياخنا فى « العوارف » وغيره من كتب المحققين ، وربما ذكروا أن

---

(١) تسمى : رسالة في علم الباطن والظاهر .

حذيفة كان يعلم أسماء المنافقين خصه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحديث أبي هريرة « حفظت جرابين » .

ويروون كلاماً عن أبي سعيد الخراز أنه قال : للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ، يخبرون عنها بلسان الأزلية ، ويقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله » . فهل ما ادعوه صحيحاً أم لا ؟ .

فسيدى يبين لنا مقالاتهم ؛ فإن المملوك وقف على كلام لبعض العلماء ذكر فيه أن الواحدي قال : ألف أبو عبد الرحمن السلمي كتابا سماه « حقائق التفسير » إن صح عنه فقد كفر ، ووقفت على هذا الكتاب فوجدت كلام هذه الطائفة منه أو ما شابهه ، فما رأي سيدي فى ذلك ؟ وهل صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « للقرآن باطن » الحديث يفسرونه على ما يرونه من أذواقهم ومواجيدهم المردودة شرعا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب الشيخ ــ رضي الله عنه ــ الحمد لله رب العالمين .

أما الحديث المذكور فمن الأحاديث المختلقة التى لم يروها أحد

من أهل العلم ، ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث ؛ ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفاً أو مرسلا « أن لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً » وقد شاع في كلام كثير من الناس : « علم الظاهر ، وعلم الباطن » ، و « أهل الظاهر ، وأهل الباطن » . ودخل فى هذه العبارات حق وباطل .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ؛ لكن نذكر هنا جملا من ذلك فنقول :

قول الرجل : « الباطن » إما أن يريد علم الأمور الباطنة مثل العلم بما فى القلوب من المعارف والأحوال والعلم بالغيوب التى أخبرت بها الرسل ، وإما أن يريد به العلم الباطن ، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس ، أو عن فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك .

فأما الأول فلا ريب أن العلم منه ما يتعلق بالظاهر . كأعمال الجوارح ، ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب ، ومنه ما هو علم بالشهادة ، وهو ما يشهده الناس بحواسهم ، ومنه ما يتعلق بالغيب ، وهو ما غاب عن إحساسهم .

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى : (الٓمٓ *

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ) والغيب الذي يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة ، ويدخل فى ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، وملائكته والجنة ، والنار ، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب ؛ فإن وصف الرسالة هو من الغيب ، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى قوله : (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ)
وقال : (وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا) .

والعلم بأحوال القلوب . — كالعلم بالاعتقادات الصحيحة والفاسدة ، والإرادات الصحيحة والفاسدة ، والعلم بمعرفة الله ومحبته ، والإخلاص له وخشيته ، والتوكل عليه ، والرجاء له ، والحب فيه والبغض فيه ، والرضا بحكمه والإنابة إليه ، والعلم بما يحمد ويذم من أخلاق النفوس ، كالسخاء والحياء ، والتواضع والكبر ، والعجب والفخر ، والخيلاء ، وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه — قد يقال : له : « علم الباطن » أي علم بالأمر الباطن ، فالمعلوم هو الباطن ، وأما العلم الظاهر فهو ظاهر يتكلم به ويكتب ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، وكلام السلف وأتباعهم ، بل غالب آي القرآن هو من هذا

العلم ؛ فإن الله أنزل القرآن (شِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) . بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين ؛ فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان ، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح ، والقلب هو ملك البدن ، كما قال أبو هريرة — رضي الله عنه — القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده ، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان ودفع النفاق كان منافقاً إن أظهر الإسلام ؛ فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية ، والإيمان في القلب ، كما فى المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » وكلام الصحابة والتابعين والأحاديث والآثار فى هذا أكثر منها فى الإجارة والشفعة والحيض والطهارة بكثير كثير ؛ ولكن هذا العلم ظاهر موجود مقول باللسان ، مكتوب فى الكتب ؛ ولكن من كان بأمور القلب أعلم كان أعلم به وأعلم بمعانى القرآن والحديث .

وعامة الناس يجدون هذه الأمور في أنفسهم ذوقاً ووجداً فتكون

محسوسة لهم بالحس الباطن ؛ لكن الناس في حقائق الإيمان متفاضلون تفاضلا عظيما ، فأهل الطبقة العليا يعلمون حال أهل السفلى من غير عكس ، كما أن أهل الجنة فى الجنة ينزل الأعلى إلى الأسفل ، ولا يصعد الأسفل إلى الأعلى ، والعالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً ؛ فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة وحقائق أنباء الغيب التى أخبرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس ، فيكون هذا العلم باطناً من جهتين : من جهة كون المعلوم باطناً ، ومن جهة كون العلم باطناً لا يعرفه أكثر الناس . ثم إن هذا الكلام فى هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل فى غيره ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق ، وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام فى الأمور الظاهرة .

فصل

وأما إذا أريد بالعلم الباطن العلم الذي يبطن عن أكثر الناس أو عن بعضهم فهذا على نوعين :

« أحدهما » باطن يخالف العلم الظاهر . و « الثانى » لا يخالفه .

فأما الأول فباطل ؛ فمن ادعى علماً باطنا أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئاً ، إما ملحداً زنديقاً وإما جاهلا ضالا .

وأما الثانى فهو بمنزلة الكلام فى العلم الظاهر قد يكون حقاً ، وقد يكون باطلا فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة مخالفته للظاهر المعلوم ، فإن علم أنه حق قبل ، وإن علم أنه باطل رد وإلا ، أمسك عنه ، وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم ، ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة المتصوفة والمتكلمين .

وشر هؤلاء القرامطة فإنهم يدعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر ؛ فيقولون : « الصلاة » المأمور بها ليست هذه الصلاة ، أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة ، وأما الخاصة فالصلاة فى حقهم معرفة أسرارنا ، و « الصيام » كتمان أسرارنا ، و « الحج » السفر إلى زيارة شيوخنا المقدسين ، ويقولون : إن « الجنة » للخاصة : هي التمتع في الدنيا باللذات ، و « النار » هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها ، ويقولون : إن « الدابة » التى يخرجها الله للناس هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت ، وإن « إسرافيل » الذي ينفخ فى الصور هو العالم الذي ينفخ بعلمه فى القلوب حتى تحيا ، و « جبريل » هو العقل الفعال الذي تفيض عنه الموجودات ، و « القلم » هو العقل الأول

الذي تزعم الفلاسفة أنه المبدع الأول ، وأن الكواكب والقمر والشمس التى رآها إبراهيم هي النفس والعقل وواجب الوجود ، وأن الأنهار الأربعة التى رآها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج هي العناصر الأربعة ، وأن الأنبياء التى رآها فى السماء هي الكواكب . فآدم هو القمر ، ويوسف هو الزهرة ، وإدريس هو الشمس ، وأمثال هذه الأمور .

وقد دخل فى كثير من أقوال هؤلاء كثير من المتكلمين والمتصوفين ؛ لكن أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض ، وعامة الصوفية والمتكلمين ليسوا رافضة يفسقون الصحابة ولا يكفرونهم ؛ لكن فيهم من هو كالزيدية الذين يفضلون علياً على أبى بكر ، وفيهم من يفضل علياً فى العلم الباطن كطريقة الحربى وأمثاله ، ويدعون أن علياً كان أعلم بالباطن ، وأن هذا العلم أفضل من جهته ، وأبو بكر كان أعلم بالظاهر . وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم ، فإنهم متفقون على أن أعلم الخلق بالعلم الباطن هو أبو بكر الصديق . وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أبا بكر أعلم الأمة بالباطن والظاهر ، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد .

وهؤلاء الباطنية قد يفسرون : (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) أنه علي ، ويفسرون قوله تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) بأنهما أبو بكر وعمر ، وقوله : (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) أنهم طلحة والزبير ،

و (ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ) بأنها بنو أمية .

وأما باطنية الصوفية فيقولون فى قوله تعالى : (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) إنه القلب ، و (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً) إنها النفس ، ويقول أولئك هي عائشة ، ويفسرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقل الفعال أو غيره ، ويجعلون (خلع النعلين) ترك الدنيا والآخرة ، ويفسرون (الشجرة) التى كلم منها موسى و (الوادي المقدس) ونحو ذلك بأحوال تعرض للقلب عند حصول المعارف له ، وممن سلك ذلك صاحب « مشكاة الأنوار » وأمثاله ، وهي مما أعظم المسلمون إنكاره عليه ، وقالوا أمرضه « الشفاء » ، وقالوا : دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج فما قدر ، ومن الناس من يطعن في هذه الكتب ، ويقول : إنها مكذوبة عليه ، وآخرون يقولون : بل رجع عنها ، وهذا أقرب الأقوال ؛ فإنه قد صرح بكفر الفلاسفة فى مسائل ، وتضليلهم فى مسائل أكثر منها ، وصرح بأن طريقتهم لا توصل إلى المطلوب .

وباطنية الفلاسفة يفسرون الملائكة والشياطين بقوى النفس ، وما وعد الناس به فى الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم ، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ويتألم بها ، وقد وقع في هذا الباب فى كلام كثير من متأخري الصوفية ، ما لم يوجد مثله عن أئمتهم ومتقدميهم ، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل

الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد عن أئمتهم ومتقدميهم .

وهؤلاء المتأخرون — مع ضلالهم وجهلهم — يدعون أنهم أعلم وأعرف من سلف الأمة ومتقدميها ، حتى آل الأمر بهم إلى أن جعلوا الوجود واحداً ، كما فعل ابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله فإنهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كل عقل ودين ، وهم يدعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين : كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وإبراهيم الخواص ، وغيرهم ماتوا وما عرفوا التوحيد ، وينكرون على الجنيد وأمثاله إذا ميزوا بين الرب والعبد كقوله : « التوحيد » إفراد الحدوث عن القدم . ولعمري إن توحيدهم الذي جعلوا فيه وجود المخلوق وجود الخالق هو من أعظم الإلحاد الذي أنكره المشايخ المهتدون ، وهم عرفوا أنه باطل فأنكروه وحذروا الناس منه ، وأمروهم بالتمييز بين الرب والعبد ، والخالق والمخلوق ، والقديم والمحدث ، وأن التوحيد أن يعلم مباينة الرب لمخلوقاته وامتيازه عنها ، وأنه ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

ثم إنهم يدعون أنهم أعلم بالله من المرسلين ، وأن الرسل إنما تستفيد معرفة الله من مشكاتهم ، ويفسرون القرآن بما يوافق باطنهم الباطل ، كقوله : (مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ) فهي التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وقولهم إن العذاب مشتق من العذوبة ، ويقولون : إن

كلام نوح فى حق قومه ثناء عليهم بلسان الذم ، ويفسرون قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بعلم الظاهر ، بل (خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) فلا يعلمون غيره ، (وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ) فلا يسمعون من غيره ولا يرون غيره ، فإنه لا غير له فلا يرون غيره . ويقولون فى قوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) أن معناه قدر ذلك لأنه ليس ثم موجود سواه ، فلا يتصور أن يعبد غيره . فكل من عبد الأصنام والعجل ما عبد غيره ، لأنه ماثم غير ، وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التى يعلم كل مؤمن وكل يهودي ونصرانى علماً ضرورياً أنها مخالفة لما جاءت به الرسل ، كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين .

وجماع القول فى ذلك أن هذا الباب نوعان :

« أحدهما » أن يكون المعنى المذكور باطلا ؛ لكونه مخالفاً لما علم ، فهذا هو في نفسه باطل ، فلا يكون الدليل عليه إلا باطلا ؛ لأن الباطل لا يكون عليه دليل يقتضي أنه حق .

و « الثاني » ما كان في نفسه حقاً ، لكن يستدلون عليه من القرآن والحديث بألفاظ لم يرد بها ذلك ، فهذا الذي يسمونه «إشارات» ، و « حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن فيه من هذا الباب شيء كثير .

وأما « النوع الأول » فيوجد كثيراً فى كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمسلمين فى أصول دينهم ، فإن من علم أن السابقين الأولين قد رضي الله عنهم ورضوا عنه ، علم أن كل ما يذكرونه على خلاف ذلك فهو باطل ، ومن أقر بوجوب الصلوات الخمس على كل أحد ما دام عقله حاضراً ، علم أن من تأول نصاً على سقوط ذلك عن بعضهم فقد افترى ، ومن علم أن الخمر والفواحش محرمة على كل أحد ما دام عقله حاضراً علم أن من تأول نصاً يقتضي تحليل ذلك لبعض الناس أنه مفتر .

وأما « النوع الثاني » فهو الذي يشتبه كثيراً على بعض الناس ، فإن المعنى يكون صحيحاً ، لدلالة الكتاب والسنة عليه ، ولكن الشأن في كون اللفظ الذي يذكرونه دل عليه ، وهذان قسمان :

« أحدهما » أن يقال : إن ذلك المعنى مراد باللفظ فهذا افتراء على الله ، فمن قال المراد بقوله : (تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً) هي النفس ، وبقوله (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) هو القلب ، (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) أبو بكر (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) عمر (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) عثمان (تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) علي : فقد كذب على الله إما متعمداً وإما مخطئاً .

و « القسم الثانى » أن يجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس ،

لا من باب دلالة اللفظ فهذا من نوع القياس ، فالذي تسميه الفقهاء قياساً هو الذي تسميه الصوفية إشارة ، وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل ، كانقسام القياس إلى ذلك ، فمن سمع قول الله تعالى: (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وقال : إنه اللوح المحفوظ أو المصحف ، فقال : كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر ، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة ، وهي قلوب المتقين ، كان هذا معنى صحيحاً واعتباراً صحيحاً ، ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف ؛ قال تعالى : (الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) وقال : (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) وقال : (يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ) وأمثال ذلك .

وكذلك من قال : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا جنب » فاعتبر بذلك أن القلب لا يدخله حقائق الإيمان ، إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد فقد أصاب ، قال تعالى : (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) وقال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) وأمثال ذلك .

و « كتاب حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن السلمي يتضمن ثلاثة أنواع :

« أحدها » نقول ضعيفة عمن نقلت عنه مثل أكثر ما نقله عن جعفر الصادق ، فإن أكثره باطل عنه ، وعامتها فيه من موقوف أبي عبد الرحمن ، وقد تكلم أهل المعرفة في نفس رواية أبي عبد الرحمن ، حتى كان البيهقي إذا حدث عنه يقول حدثنا من أصل سماعه .

و « الثاني » أن يكون المنقول صحيحاً ، لكن الناقل أخطأ فيما قال .

و « الثالث » نقول صحيحة عن قائل مصيب . فكل معنى يخالف الكتاب والسنة فهو باطل ، وحجته داحضة ، وكل ما وافق الكتاب والسنة والمراد بالخطاب غيره إذا فسر به الخطاب فهو خطأ ، وإن ذكر على سبيل الإشارة والاعتبار والقياس فقد يكون حقاً وقد يكون باطلا .

وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن أو الحديث ، وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله ، ملحد في آيات الله ، محرف للكلم عن مواضعه ، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد ، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام .

وأما ما يروى عن بعضهم من الكلام المجمل مثل قول بعضهم : لو

شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب إلخ . فهذا إذا صح عمن نقل عنه كعلي وغيره لم يكن فيه دلالة على الباطن المخالف للظاهر ؛ بل يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح . وقد تقدم أن الباطن إذا أريد به مالا يخالف الظاهر المعلوم فقد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ؛ ولكن ينبغي أن يعرف أنه قد كذب على علي وأهل بيته ؛ لا سيما على جعفر الصادق ما لم يكذب على غيره من الصحابة ، حتى إن الإسماعيلية والنصيرية يضيفون مذهبهم إليه وكذلك المعتزلة .

وكذلك فرقة التصوف يقولون : إن الحسن البصري صحبه ، وإنه دخل المسجد فرأى الحسن يقص مع القصاص ، فقال : ماصلاح الدين ؟ قال الورع . قال : فما فساده ؟ قال الطمع ، فأقره وأخرج غيره ؛ وقد اتفق أهل المعرفة بالمنقولات أن الحسن لم يصحب علياً ، ولم يأخذ عنه شيئاً ، وإنما أخذ عن أصحابه كالأحنف بن قيس ، وقيس بن سعد ابن عباد وأمثالهما ، ولم يقص الحسن فى زمن علي ؛ بل ولا فى زمن معاوية ؛ وإنما قص بعد ذلك ، وقد كانوا فى زمن علي يكذبون عليه حتى كان الناس يسألونه ، كما ثبت فى الصحيحين « أنه قيل له : هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب تقرؤونه ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا هذه الصحيفة . وفيها أسنان الإبل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر » وفي لفظ : « هل عهد إليكم

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس ؟ فقال : لا » وفى لفظ : « إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه » .

وأما « العلم اللدني » فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين ، وعباده الصالحين ، بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه ، واتباعهم ما يحبه ، ما لا يفتح به على غيرهم . وهذا كما قال علي : إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه ، وفى الأثر : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع ، كقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما ، وقال تعالى : (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وقال : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) وقال تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى : (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وقال تعالى : (هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى ، كقوله : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وقوله : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ *

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أي : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، ونقلب أفئدتهم أي يتركون الإيمان ، ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة ، أي ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذ .

ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال (أن) بمعنى لعل ، واستشكل قراءة الفتح ؛ بل يعلم حينئذ أنها أحسن من قراءة الكسر ، وهذا باب واسع . والناس فى هذا الباب على ثلاثة أقسام طرفان ووسط .

فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس توجب حصول العلم بلا سبب آخر .

وقوم يقولون : لا أثر لذلك بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية .

وأما الوسط : فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم ؛ بل هو شرط فى حصول كثير من العلم ، وليس هو وحده كافياً ؛ بل لابد من أمر آخر إما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به ،

وإما التصور الصحيح لطرفى القضية فى العلوم الضرورية .

وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار ، ويسعد به العباد، فلا يحصل إلا باتباع الكتب التى جاءت بها الرسل ، قال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن) إلخ وقال تعالى :

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)

فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به ، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل .

وأضل منهما من سلك فى العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ، ولا العمل بموجب العلم ، أو سلك فى العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم ؛ فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع ، وأعرض أولئك عن العمل والشرع ، فضل كل منهما من هذين الوجهين ، وتباينوا تبايناً عظيما ، حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم وأشبه هؤلاء النصارى الضالين ؛ بل صار منهما من هو شر

من اليهود والنصارى ، كالقرامطة والاتحادية وأمثالهم من الملاحدة الفلاسفة .

فصل

وأما قول القائل : إن النبي صلى الله عليه وسلم خص كل قوم بما يصلح لهم إلخ ، فهذا الكلام له وجهان :

إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم فهذا لاريب فيه ، فإنه ليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغنى ، ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح ، ولا ما يؤمر به عند المصائب هو مايؤمر به عند النعم ، ولا ما تؤمر به الحائض كما تؤمر به الطاهرة ، ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية . فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم ، كما قد يشتركون فى أصل الإيمان بالله وتوحيده ، والإيمان بكتبه ورسله .

وإن أراد به أن الشريعة فى نفسها تختلف ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب زيداً بخطاب يناقض ماخاطب به عمراً ، أو أظهر لهذا شيئاً يناقض ما أظهره لهذا ، كما يرويه الكذابون « أن عائشة سألته

هل رأيت ربك ؟ فقال : لا . وسأله أبو بكر فقال : نعم » . « وأنه أجاب عن مسألة واحدة بجوابين متناقضين لاختلاف حال السائلين » فهذا من كلام الكذابين المفترين ؛ بل هو من كلام الملاحدة المنافقين ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » ، والحديث في سنن أبي داود وغيره . وكان عام الفتح قد أهدر دم جماعة منهم ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً ثم بايعه ، ثم قال : « أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلي وقد أعرضت عن هذا فيقتله ؟ » فقال بعضهم : هلا أومضت إلي يا رسول الله ؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه وسره وعلانيته ، وأنه لا يبطن خلاف ما يظهر على عادة الماكرين المنافقين .

ولا ريب أن القرامطة وأمثالهم من الفلاسفة يقولون : إنه أظهر خلاف ما أبطن ، وأنه خاطب العامة بأمور أراد بها خلاف ما أفهمهم لأجل مصلحتهم ؛ إذ كان لا يمكنه صلاحهم إلا بهذا الطريق ، وقد زعم ذلك ابن سينا وأصحاب « رسائل إخوان الصفا » وأمثالهم من الفلاسفة والقرامطة الباطنية ؛ فإن ابن سينا كان هو وأهل بيته من أتباع الحاكم القرمطي العبيدي ، الذي كان بمصر .

وقول هؤلاء كما أنه من أكفر الأقوال فجهلهم من أعظم الجهل ،

وذلك أنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يعلمه أهل العقل والذكاء من الناس ، وإذا علموه امتنع في العادة تواطؤهم على كتمانه كما يمتنع تواطؤهم على الكذب ، فإنه كما يمتنع فى العادة تواطؤ الجميع على الكذب يمتنع تواطؤهم على كتمان ماتتوفر الهمم والدواعى على بيانه و ذكره لا سيما مثل معرفة هذه الأمور العظيمة ، التى معرفتها والتكلم بها من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى عليه ، ألا ترى أن الباطنية ونحوهم أبطنوا خلاف ما أظهروه للناس ، وسعوا فى ذلك بكل طريق ، وتواطأوا عليه ما شاء الله . حتى التبس أمرهم على كثير من أتباعهم . ثم إنهم مع ذلك اطلع على حقيقة أمرهم جميع أذكياء الناس من موافقيهم ومخالفيهم ، وصنفوا الكتب فى كشف أسرارهم ورفع أستارهم ، ولم يكن لهم فى الباطن حرمة عند من عرف باطنهم ، ولا ثقة بما يخبرون به ، ولا التزام طاعة لما يأمرون ، وكذلك من فيه نوع من هذا الجنس .

فمن سلك هذه السبيل لم يبق لمن علم أمره ثقة بما يخبر به ، وبما يأمر به ، وحينئذ فينتقض عليه جميع ما خاطب به الناس ، فإنه ما من خطاب يخاطبهم به إلا ويجوزون عليه أن يكون أراد به غير ما أظهره لهم ، فلا يثقون بأخباره وأوامره ، فيختل عليه الأمر كله فيكون مقصوده صلاحهم ، فيعود ذلك بالفساد العظيم ؛ بل كل من وافقه فلا بد أن يظهر خلاف ما أبطن ، كاتباع من سلك هذه السبيل من القرامطة

الباطنية وغيرهم لا تجد أحداً من موافقيهم إلا ولا بد أن يبين أن ظاهره خلاف باطنه ، ويحصل لهم بذلك من كشف الأسرار وهتك الأستار ما يصيرون به من شرار الكفار .

وإذا كانت الرسل تبطن خلاف ما تظهر فإما أن يكون العلم بهذا الاختلاف ممكناً لغيرهم وإما أن لا يكون ، فإن لم يكن ممكناً كان مدعى ذلك كذابا مفتريا ؛ فبطل قول هؤلاء الملاحدة الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم ، وإن كان العلم بذلك ممكناً علم بعض الناس مخالفة الباطن للظاهر ، وليس لمن يعلم ذلك حد محدود ؛ بل إذا علمه هذا علمه هذا وعلمه هذا فيشيع هذا ويظهر ؛ ولهذا كان من اعتقد هذا فى الأنبياء كهؤلاء الباطنية من الفلاسفة والقرامطة ونحوهم معرضين عن حقيقة خبره وأمره ، لا يعتقدون باطن ما أخبر به ، ولا ما أمر ؛ بل يظهر عليه من مخالفة أمره والإعراض عن خبره ما يظهر لكل أحد ، ولا تجد في أهل الإيمان من يحسن بهم الظن ؛ بل يظهر فسقهم ونفاقهم لعوام المؤمنين فضلا عن خواصهم .

وأيضاً فمن كانت هذه حاله كان خواصه أعلم الناس بباطنه ، والعلم بذلك يوجب الانحلال فى الباطن ، ومن علم حال خاصة النبى صلى الله عليه وسلم — كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين الأولين — علم أنهم كانوا أعظم الناس تصديقاً لباطن أمر خبره وظاهره ، وطاعتهم

له فى سرهم وعلانيتهم ، ولم يكن أحد منهم يعتقد فى خبره وأمره ما يناقض ظاهر ما بينه لهم ودلهم عليه ، وأرشدهم إليه ، ولهذا لم يكن فى الصحابة من تأول شيئاً من نصوصه على خلاف مادل عليه ، لا فيما أخبر به الله عن أسمائه وصفاته ، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت ، وأن ما ظهر من هذا ما ظهر إلا ممن هو عند الأمة من أهل النفاق والاتحاد ، كالقرامطة والفلاسفة والجهمية نفاة حقائق الأسماء والصفات .

ومن تمام هذا أن تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخص أحداً من أصحابه بخطاب فى علم الدين قصد كتمانه عن غيره ، ولكن كان قد يسأل الرجل عن المسألة التى لا يمكن جوابها ؛ فيجيبه بما ينفعه كالأعرابي الذي سأله عن الساعة ، والساعة لا يعلم متى هي ؟ فقال : « ما أعددت لها ؟ فقال ما أعددت لها من كثير عمل ؛ ولكني أحب الله ورسوله ، فقال : المرء مع من أحب » فأجابه بالمقصود من علمه بالساعة ، ولم يكن يخاطب أصحابه بخطاب لا يفهمونه ؛ بل كان بعضهم أكمل فهما لكلامه من بعض ، كما فى الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة ، فاختار ذلك العبد ما عند الله ؛ فبكى أبو بكر وقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا يارسول الله ، فجعل الناس يعجبون

أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به » فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكر عبداً مطلقاً لم يعينه ، ولا في لفظه ما يدل عليه ؛ لكن أبو بكر لكمال معرفته بمقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم علم أنه هو ذلك العبد ، فلم يخص عنهم بباطن يخالف الظاهر ؛ بل يوافقه ولا يخالف مفهوم لفظه ومعناه .

وأما ما يرويه بعض الكذابين عن عمر أنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما » فهذا من أظهر الأكاذيب المختلقة لم يروه أحد من علماء المسلمين فى شيء من كتب أهل العلم ، وهو من أظهر الكذب ، فإن عمر أفضل الأمة بعد أبى بكر ، وهو المحدث الملهم الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ، وهو أفضل المخاطبين المحدثين من هذه الأمة ، فإذا كان هو حاضراً يسمع الألفاظ ولم يفهم الكلام كالزنجي ، فهل يتصور أن يكون غيره أفهم منه لذلك ؟ فكيف من لم يسمع ألفاظ الرسول ؟ بل يزعم أن مايدعيه من المعانى هى تلك المعانى بمجرد الدعوى التى لو كانت مجردة لم تقبل ، فكيف إذا قامت البينة على كذب مدعيها ؟

وأما حديث حذيفة : فقد ثبت فى الصحيح : « أن حذيفة كان

يعلم السر الذي لا يعلمه غيره » وكان ذلك ما أسره إليه النبي صلى الله عليه وسلم عام تبوك من أعيان المنافقين ، فإنه روى أن جماعة من المنافقين أرادوا أن يحلوا حزام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل ليسقط عن بعيره فيموت ، وأنه أوحى إليه بذلك ، وكان حذيفة قريباً منه فأسر إليه أسماءهم .

ويقال إن عمر لم يكن يصلي على أحد حتى يصلي عليه حذيفة ، وهذا ليس فيه شيء من حقائق الدين ، ولا من الباطن الذي يخالف الظاهر ، فإن الله قد ذكر في كتابه من صفات المنافقين وأخبارهم ما ذكره ، حتى أن سورة « براءة » سميت الفاضحة لكونها فضحت المنافقين ، وسميت المبعثرة وغير ذلك من الأسماء ، لكن القرآن لم يذكر فلاناً وفلاناً ، فإذا عرف بعض الناس أن فلاناً وفلاناً من هؤلاء المنافقين الموصوفين كان ذلك بمنزلة تعريفه أن فلاناً وفلاناً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، فإخباره صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر وعمر وغيرهما في الجنة ، كإخباره أن أولئك منافقون ، وهذا إذا كان من العلم الباطن فهو من الباطن الموافق للظاهر المحقق له المطابق له .

ونظيره في « الأمر » ما يسمى « تحقيق المناط » وهو أن يكون الشارع قد علق الحكم بوصف ، فنعلم ثبوته في حق المعين كأمره باستشهاد ذوي عدل ، ولم يعين فلاناً وفلاناً ، فإذا علمنا أن هذا ذو

عدل كنا قد علمنا أن هذا المعين موصوف بالعدل المذكور في القرآن وكذلك لما حرم الله الخمر والميسر ؛ فإذا علمنا أن هذا الشراب المصنوع من الذرة والعسل خمراً علمنا أنه داخل فى هذا النص ، فعلمنا بأعيان المؤمنين وأعيان المنافقين هو من هذا الباب ، وهذا هو من تأويل القرآن .

وهذا على الإطلاق لا يعلمه إلا الله ، فإن الله يعلم كل مؤمن وكل منافق ، ومقادير إيمانهم ونفاقهم وما يختم لهم .

وأما الرسول فقد قال تعالى : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) فالله يطلع رسوله ومن شاء من عباده على ما يشاء من ذلك .

وأما حديث أبى هريرة فهو حديث صحيح . قال : « حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين ، فأما أحدهما فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم » . ولكن ليس فى هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء ؛ بل ولا فيه من حقائق الدين وإنما كان فى ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن ، فالملاحم الحروب التى بين المسلمين والكفار ، والفتن ما يكون بين المسلمين ،

ولهذا قال عبد الله بن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أبو هريرة ، وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك ، وأعوانهم لما فيه من الإخبار بتغير دولهم .

ومما يبين هذا أن أبا هريرة إنما أسلم عام خيبر ، فليس هو من السابقين الأولين ، ولا من أهل بيعة الرضوان ، وغيره من الصحابة أعلم بحقائق الدين منه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثه وغيره بالحديث فيسمعونه كلهم ، ولكن كان أبو هريرة أحفظهم للحديث ببركة حصلت له من جهة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حدثهم ذات يوم حديثا فقال : « أيكم يبسط ثوبه فلا ينسى شيئاً سمعه ففعل ذلك أبو هريرة » وقد روي « أنه كان يجزئ الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً يصلي ، وثلثاً ينام ، وثلثاً يدرس الحديث » ولم ينقل أحد قط عن أبي هريرة حديثاً يوافق الباطنية ، ولا حديثاً يخالف الظاهر المعلوم من الدين .

ومن المعلوم أنه لو كان عنده شيء من هذا لم يكن بد أن ينقل عنه أحد شيئاً منه ، بل النقول المتواترة عنه كلها تصدق ما ظهر من الدين ، وقد روى من أحاديث صفات الله وصفات اليوم الآخر وتحقيق العبادات ما يوافق أصول أهل الإيمان ، ويخالف قول أهل البهتان .

وأما ما يروى عن أبى سعيد الخراز وأمثاله فى هـذا الباب ، وما يذكره أبو طالب في كتابه وغيره ، وكلام بعض المشايخ الذي يظن أنه يقول بباطن يخالف الظاهر ، وما يوجد من ذلك في كلام أبى حامد الغزالي أو غيره .

فالجواب عن هذا كله أن يقال : ما علم من جهة الرسول فهو نقل مصدق عن قائل معصوم ، وما عارض ذلك فإما أن يكون نقلا عن غير مصدق أو قولا لغير معصوم ، فإن كثيراً مما ينقل عن هؤلاء كذب عليهم ، والصدق من ذلك فيه ما أصابوا فيه تارة وأخطأوا فيه أخرى ، وأكثر عباراتهم الثابتة ألفاظ مجملة متشابهة ، لو كانت من ألفاظ المعصوم لم تعارض الحكم المعلوم ، فكيف إذا كانت من قول غير المعصوم .

وقد جمع أبو الفضل الفلكي كتاباً من كلام أبى يزيد البسطامى سماه « النور من كلام طيفور » فيه شيء كثير لا ريب أنه كذب على أبى يزيد البسطامي ، وفيه أشياء من غلط أبى يزيد — رحمة الله عليه — وفيه أشياء حسنة من كلام أبي يزيد ، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قيل له عن أبى يزيد أو غيره من المشايخ : أنه قال لمريديه

إن تركتم أحداً من أمــة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء ، فعـارضه الآخر وقال : قلت لمريدي إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء ؛ فصدق هذا النقل عنه ثم جعل هذا المصدق لهـذا عن أبى يزيد أو غيره يستحسنه ويستعظم حاله ، فقـد دل على عظيم جهله أو نفاقه . فإنه إن كان قد علم ما أخبر به الرسول مـن دخول من يدخل النار من أهل الكبائر ، وأن النبي صلى الله عليه وسـلم هو أول من يشفع فيهم بعد أن تطلب الشفاعــة من الرسل الكبــار : كنوح وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، فيمتنعون ويعتذرون . ثم صدق أن مريدي أبى يزيد أو غيره يمنعون أحداً من الأمة من دخول النـار ، أو يخرجون هم كل من دخلها كان ذلك كفراً منه بما أخبر به الصادق المصدوق بحكاية منقولة كذب ناقلها ، أو أخطأ قائلهــا ، إن لم يكـن تعمد الكذب ، وإن كان لا يعلم ما أخبر به الرسول كان مـن أجهل الناس بأصول الإيمان .

فعلى المسلم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأن يجتهــد فى أن يعرف ما أخبر به الرسول وأمر به علماً يقينيــاً ؛ وحينئذ فلا يدع المحـكم المعلوم للمشتبه المجهول ، فإن مثال ذلك مثل من كان سائراً إلى مكة فى طريق معروفة لا شك أنها توصله إلى مكة إذا سلـكها فعدل عنهـا إلى طريق مجهولة لا يعرفها ولا يعرف منتهاها ، وهذا مثال من عـدل

عن الكتاب والسنة إلى كلام من لا يدري هل يوافق الكتاب والسنة أو يخالف ذلك .

وأما من عارض الكتاب والسنة بما يخالف ذلك فهو بمنزلة من كان يسير على الطريق المعروفة إلى مكة ، فذهب إلى طريق قبرص يطلب الوصول منها إلى مكة ، فإن هذا حال من ترك المعلوم من الكتاب والسنة ، إلى ما يخالف ذلك من كلام زيد وعمرو كائناً من كان ، فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيت فى هذا الباب من عجائب الأمور ما لا يحصيه إلا العليم بذات الصدور .

وأما الحديث المأثور : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله ، فإذا ذكروه لم ينكره إلا أهل الغرة بالله » فهذا قد رواه أبو إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام في كتابه الذي سماه « الفاروق بين المثبتة والمعطلة » وذكر فيه أحاديث الصفات صحيحها وغريبها ، ومسندها ومرسلها ، وموقوفها . وذكره أيضاً أبو حامد الغزالي فى كتبه . ثم هذا يفسره بما يناسب أقواله التى يميل فيها إلى ما يشبه أقوال نفاة الصفات من الفلاسفة ونحوهم .

وذكر شيخ الإسلام عن شيخه يحيى بن عمار أنه كان يقول :

المراد بذلك أحاديث الصفات ؛ فكان يفسر ذلك بما يناقض قول أبي حامد من أقوال أهل الإثبات . والحديث ليس إسناده ثابتاً باتفاق أهل المعرفة ، ولم يرو في أمهات كتب الحديث المعتمدة . فلا يحتاج إلى الكلام فى تفسيره ، وإذا قدر أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فهو كلام مجمل ليس فيه تعيين لقول معين ، فحينئذ فما من مدع يدعي أن المراد قوله إلا كان لخصمه أن يقول نظير ذلك ،

ولا ريب أن قول يحيى بن عمار وأبي إسماعيل الأنصاري ونحوهما من أهل الإثبات أقرب من قول النفاة إن هذا العلم هو من علم النبي صلى الله عليه وسلم بالاتفاق وعلم الصحابة .

ومن المعلوم أن قول النفاة لا ينقله أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ، لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ، بخلاف مذهب المثبتة ، فإن القرآن والحديث والآثار عن الصحابة مملوءة به ، فكيف يحمل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على علم لم ينقله عنه أحد ، ويترك حمله على العلم المنقول عنه وعن أصحابه ؟! .

وكذلك ما ذكره البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله » قد حمله أبو الوليد بن رشد الحفيد الفيلسوف وأمثاله على علوم الباطنية

الفلاسفة نفاة الصفات ، وهذا تحريف ظاهر ، فإن قول علي : أتحبون أن يكذب الله ورسوله . دليل على أن ذلك مما أُخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقوال النفاة من الفلاسفة والجهمية والقرامطة والمعتزلة لم ينقل فيها مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً لا صحيحاً ولا ضعيفاً ، فكيف يكذب الله ورسوله فى شيء لم ينقله أحد عن الله ورسوله ؟ بخلاف ما رواه أهل الإثبات من أحاديث صفات الرب وملائكته ، وجنته وناره ، فإن هذا كثير مشهور قد لا تحتمله عقول بعض الناس ، فإذا حدث به خيف أن يكذب الله ورسوله .

ومن هذا الباب قول عبد الله بن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » وابن مسعود فيما يقول ذاكراً أو آمراً من أعظم الناس إثباتاً للصفات ، وأرواهم لأحاديثها ، وأصحابه من أجل التابعين وأبلغهم في هذا الباب ، وكذلك أصحاب ابن عباس ، فكل من كان من الصحابة أعلم كان إثباته وإثبات أصحابه أبلغ ، فعلم أن الصحابة لم يكونوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، ولا يظهرون الإثبات ويبطنون النفي ، ولا يظهرون الأمر ويبطنون امتناعه ؛ بل هم أقوم الناس بتصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر .

وهذا باب واسع دخل فيه من الأمور ما لا يتسع هذا الموضع

لتفصيله ، ولكن نعلم جماع الأمر أن كل قول وعمل فلا بد له من ظاهر وباطن . فظاهر القول لفظ اللسان ، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه بالجنان ، وظاهر العمل حركات الأبدان . وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه ومقاصد الإنسان .

فالمنافق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الإيمان لم ينفعه ذلك وكان من أهل الخسران ؛ بل كان في الدرك الأسفل من النار ، قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)
الآيات . فإن الله أنزل في أول سورة البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين . وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين . وقال تعالى : (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ) السورة وقال تعالى : (لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ) الآية .

والملاحدة يظهرون موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك ، وهم شر من المنافقين ، فإن المنافقين نوعان : نوع يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، ولا يدعى أن الباطن الذي يبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان . والملاحدة تدعى أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان ،

وأن الأنبياء والأولياء هم من جنسهم يبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل ، فهم يجمعون بين أبطان الكفر وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان ، فلا يظهرون للمستجيب لهم أن باطنه طعن فى الرسول والمؤمنين ، وتكذيب له ؛ بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله ، وأن الذي فعله هو الغاية فى الكمال ، وأنه لا يفعله إلا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة ، وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة ، وهذا قد يظنه طوائف حقاً باطناً وظاهراً فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان ، وقد علم بالاضطرار أن النفاق ضد الإيمان .

ولهذا كان أعظم الأبواب التى يدخلون منها باب التشيع والرفض ؛ لأن الرافضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول ، وهم يجعلون التقية من أصول دينهم ، ويكذبون على أهل البيت كذباً لا يحصيه إلا الله ، حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال التقية ديني ودين آبائي . و « التقية » هي شعار النفاق ؛ فإن حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وهذا حقيقة النفاق .

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن علي أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون : هذا قالوه على سبيل التقية ، ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية

الفلاسفة من الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم ؛ فجعلوا ما يقوله الرسول هو من هذا الباب أظهر به خلاف ما أبطن ، وأسر به خلاف ما أعلن ، فكان حقيقة قولهم أن الرسول هو إمام المنافقين ، وهو صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق ، المبين للناس ما نزل إليهم ، المبلغ لرسالة ربه ، المخاطب لهم بلسان عربي مبين . قال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) وقال تعالى : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا) وقال تعالى : (لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) وقال تعالى : (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) وقال تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) وقال تعالى : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) وقال تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) وقال تعالى : (فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

وقالت الرسل (رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) وقال : (قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

وقال تعالى : (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ) . فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين . يقال : بان الشيء وأبان واستبان وتبين وبين كلها أفعال لازمة . وقد يقال : أبان غيره وبينه وتبينه واستبانه .

ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم ؛ بل قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتموه ، وذم كاتميه فقال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ) فقد لعن كاتمه ، وأخبر أنه بينه للناس فى الكتاب ، فكيف يكون قد بينه للناس وهو قد كتم الحق وأخفاه ، وأظهر خلاف ما أبطن ؟ فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما ، ومن نسب الأنبياء إلى الكذب والكتمان مع كونه يقول إنهم أنبياء فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم تناقضا .

وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق

بعض الصوفية والفقراء ، وبعض أهل الكلام والفلسفة ، يسلك مسلك الباطنية فى بعض الأمور لا فى جميعها ، حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص . أو حل الخمر وغيرها من المحرمات لهم ، أو أن لبعضهم طريقا إلى الله عز وجل غير متابعة الرسول .

وقد يحتج بعضهم بقصة موسى والخضر ، ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة : فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة ، وهم فى هذا ضالون من وجهين :

« أحدهما » أن الخضر لم يخرج عن الشريعة : بل الذي فعله كان جائزاً فى شريعة موسى : ولهذا لما بين له الأسباب أقره على ذلك ، ولو لم يكن جائزاً لما أقره . ولكن لم يكن موسى يعلم الأسباب التى بها أبيحت تلك [فظن أن الخضر] كالملك الظالم . فذكر ذلك له الخضر .

و « الثانى » أن الخضر لم يكن من أمة موسى ، ولا كان يجب عليه متابعته : بل قال له : إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه . وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وذلك أن دعوة موسى لم تكن عامة ، فإن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة : بل بعث إلى الإنس والجن باطنا وظاهراً : فليس لأحد أن يخرج عن طاعته ومتابعته . لا في الباطن ولا

فى الظاهر ؛ لا من الخواص ولا من العوام .

ومن هؤلاء من يفضل بعض الأولياء على الأنبياء ، وقد يجعلون الخضر من هؤلاء ، وهذا خلاف ما أجمع عليه مشايخ الطريق المقتدى بهم ، دع عنك سائر أئمة الدين وعلماء المسلمين ؛ بل لما تكلم الحكيم الترمذي فى كتاب « ختم الأولياء » بكلام ذكر أنه يكون فى آخر الأولياء من هو أفضل من الصحابة ، وربما لوح بشيء من ذكر الأنبياء — قام عليه المسلمون ، وأنكروا ذلك عليه ونفوه من البلد بسبب ذلك ، ولا ريب أنه تكلم في ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه .

ومن هناك ضل من اتبعه فى ذلك ، حتى صار جماعات يدعي كل واحد أنه خاتم الأولياء ، كابن عربى صاحب « الفصوص » وسعد الدين بن حمويه وغيرهما ، وصار بعض الناس يدعي أن فى المتأخرين من يكون أفضل فى العلم بالله من أبى بكر وعمر ، والمهاجرين والأنصار ، إلى أمثال هذه المقالات التى يطول وصفها ، مما هو باطل بالكتاب والسنة والإجماع ؛ بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية ، وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ .

وهؤلاء شر من القدرية المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ويكذبون بالقدر ؛ فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس ، وقد بسط الكلام على هذه الأمور فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » أن الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه ؛ فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق ، ومن ادعى باطنا يخالف ظاهراً فهو كافر منافق ، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه ، وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحققه ، فكما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن وهما متفقان فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان ، فالباطن للباطن من الإنسان والظاهر للظاهر منه .

والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر ، والباطن أصل الظاهر ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » وفي المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » وقد قال تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) وقال تعالى : (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ) وقال تعالى : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) وقال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) وأمثال هذا كثير فى القرآن .

وقال فى حق الكفار : (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

وقال : (خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ)

وأمثال ذلك .

فنسأل الله العظيم أن يصلح بواطننا وظواهرنا ، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنه وكرمه . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

وقال شيخ الإسلام

أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم[1]

فصل

قوله تعالى : (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ) إلى قوله : (لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام :

قاسية ، وذات مرض ، ومؤمنة مخبتة ؛ وذلك لأنها إما أن تكون يابسة

---

(١) تسمى : الإكليل فى التشابه والتأويل .

جامدة لا تلين للحق اعترافا ، وإذعانا ، أو لا تكون يابسة جامدة .

فـ « الأول » هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ، ولا يكتب فيـــه الإيمان ، ولا يرتسم فيـــه العلم ؛ لأن ذلك يستدعى محلالينا قابلا .

و « الثانى » لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال . فالثانى هو الذي فيه مرض ، والأول هو القوى اللين .

وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلا ، فإمـــا أن تكون جامدة يابسة لا تلتوى ولا تبطش ، أو تبطش بعنف ، فذلك مثل القلب القاسي ، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضهـــا ، فذلك مثل الذي فيه مرض ، أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثـــل القلب العليم الرحيم ، فبالرحمة خرج عن القسوة ، وبالعلم خرج عـــن المرض ؛ فإن المرض من الشكوك والشبهات .

ولهذا وصف من عـــدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات . وفى قوله :
(وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ)
دليل على أن العلم يدل على الإيمان ، ليس أن أهـــل العلم

ارتفعوا عن درجة الإيمان ــ كما يتوهمه طائفة من المتكلمة ــ بل معهم العلم والإيمان ، كما قال تعالى : (لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ) الآية .

وعلى هذا فقوله : (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) نظير هذه الآية ، فإنه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم ، وأخبر هناك أنهم يقولون فى المتشابه : (ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) وكلا الموضعين موضع ريب وشبهة لغيرهم ؛ فإن الكلام هناك فى المتشابه وهنا فيما يلقى الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته ، وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه الله مما ألقاه الشيطان ؛ ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين : إن « المحكم » هو الناسخ ، و « المتشابه » المنسوخ . أرادوا والله أعلم قوله : (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ) . والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله .

وقد أشرت إلى وجه ذلك فيما بعد ، وهو : أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ، ومقابل المنسوخ أخرى . والمنسوخ يدخل فيه فى اصطلاح السلف ــ العام ــ كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق ، فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ،

ويدخل فيه المجمل فإنه متشابه ، وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد ، وكذلك مارفع حكمه ، فإن في ذلك جميعه نسخاً لما يلقيه الشيطان فى معانى القرآن ؛ ولهذا كانوا يقولون : هل عرفت الناسخ من المنسوخ ؟ فإذا عرف الناسخ عرف المحكم . وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقال المحكم والمتشابه .

وقوله بعد ذلك (ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ) جعل جميع الآيات محكمة ، محكمها ومتشابهها ، كما قال : (الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ) وقال : (تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ) على أحد القولين . وهنالك جعل الآيات قسمين : محكما ومتشابهاً ، كما قال : (مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ) . وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله . فصار المحكم فى القرآن تارة يقابل بالمتشابه ، والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان .

ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول : هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكما ، وإن كان الله أنزله أولا اتباعا لظاهر قوله : (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ) و (يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ) .

فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها .

وجماع ذلك أن « الإحكام » تارة يكون فى التنزيل ، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ؛ فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ؛ ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل فى الحد ، فالمنع جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون « الإحكام » فى إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع وهو اصطلاحي ، أو يقال — وهو أشبه بقول السلف — كانوا يسمون كل رفع نسخا ، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون فى سمع المبلغ ، وقد يكون فى فهمه ، كما قال : (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا) الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له ، فإنه يلقى الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به يحصل رفع الحكم وبيان المراد . وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار والله أعلم .

وتارة يكون « الإحكام » فى التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة

المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين . قال أحمد ابن حنبل « المحكم » الذي ليس فيه اختلاف ، والمتشابه الذي يكون فى موضع كذا وفى موضع كذا .

ولم يقل فى المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله ، وإنما قال : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع ، فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمهور التابعين وجماهير الأمة .

ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ) ، وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات ومالا يعقل له معنى لا يتدبر : وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ) ، ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كحيي بن أخطب وغيره من

طلب من حروف الهجاء التى فى أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفـة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاما ، لأن ذلـك هو عـدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المـكرر ، وهذا من نوع تأويل الحوادث التى أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر .

وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد نجران من تأول (إنا) و (نحن) على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل فى الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر ، وهؤلاء تأولوا فى الله . ومعلوم أن : (إنا) و (نحن) من المتشابه ، فإنه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد بهـا الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمـائه التى كل اسم منها يقوم مقـام مسمى ، فصار هـــذا متشابهاً لأن اللفـظ واحـد والمعنى متنوع .

و « الأسماء المشتركة فى اللفظ » هي من المتشابه ، وبعض « المتواطئة » أيضاً من المتشابه ، ويسميها أهل التفسير « الوجوه ، والنظائر » وصنفوا « كتب الوجوه ، والنظائر » فالوجوه فى الأسماء المشتركة ، والنظائر فى الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين فى ذلـك أن الوجوه

والنظائر جميعاً في الأسماء المشتركة ، فهي نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله .

والذين فى قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ) (لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التى أخبر عنها .

وذلك أن « الكلام نوعان » : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف إن السنة هي تأويل الأمر . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن ، تعنى قوله : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه .

وقد جاء اسم « التأويل » فى القرآن فى غير موضع وهذا معناه.

قال الله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه ، ثم قال : (هَلْ يَنظُرُونَ) أي ينتظرون (إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ) إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة ، وأشراطها : كالدابة ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفاً صفاً ، وما فى الآخرة من الصحف ، والموازين ، والجنة والنار ، وأنواع النعيم والعذاب ، وغير ذلك ، فحينئذ يقولون : (قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ)

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله ؛ فإن الله يقول : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ويقول : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ؛ فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن

تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينها تباين عظيم مع التشابه ، كما في قوله : (وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا) على أحد القولين أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله ، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه . فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينها ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه . وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به .

وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . فكل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته .

وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا

المتشابه (ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ) بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن تكون في الجنة هذه الحقائق . (وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ) ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا . قال الله تعالى : (وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : (فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ) لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقوله : (وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ) إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب ، أو على المتشابه ؛ فإن كان عائداً على الكتاب كقوله (منه) و (منه) فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ؛ فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التى فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله (وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ * هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ) فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعا وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا ، وكذلك قوله : (بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ)

وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة وصار هذا بمنزلة قوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وكذلك قوله : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾
فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به . فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله ، وهـذا واضح بين . ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما يقوله كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار : « العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه » ، لأن المقصود في الخبر الإيمان ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهي ؛ ولهذا قال بعض [العلماء] : « المتشابه » الأمثال والوعد ، [والوعيد] و « المحكم » الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لا بد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ « التأويل » في القرآن قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى :

(وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ) .

فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله ، وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي كقوله : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ) وقوله : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله كما تحداهم وطالبهم لما قال : (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) فهذا تعجيز لجميع المخلوقين . قال تعالى : (وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) أي مصدق الذي بين يديه (وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ) أي مفصل الكتاب فأخبر أنه مصدق الذي بين يديه ومفصل الكتاب ، والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين : (افتراه) ، ودل على أنهم هم

المفترون ، قال : (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ) أي كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله . فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله .

و « نكتة ذلك » أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها فى نفس العالم كذهن الإنسان مثلا ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم ، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة ، فالتأويل هو الحقيقة الخارجة ، وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية . وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله .

ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا)

فقد أخبر ـ ذماً للمشركين ـ أنه إذا قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم فى ذلك . وقوله : (أَن يَفْقَهُوهُ) يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه ؛ ولهذا قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عنى بها وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها . فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا الله ، يجيب مجاهداً عن كل آية فى القرآن .

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل ، لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله .

وأصل ذلك أن لفظ « التأويل » فيه اشتراك بين ما عناه الله في

القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين . فبسبب الاشتراك فى لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور فى القرآن . ومجاهد إمام التفسير . قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وأما التأويل فشأن آخر .

ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ولا قال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن فى القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه .

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك . فلقبوها : « هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه » .

وما « تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم » فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التى هي تحريف الكلم عن

مواضعه . والغالب على كلا الطائفتين الخطأ ، أولئك يقصرون فى فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ) وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : « لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً خلافاً للحشوية » . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجري على أصله فقال : هذا عبث ، والعبث على الله محال . وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلا بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول : العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ؛ لأن النزاع فى الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم : أن مدعى التأويل أخطأوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه ؛ فإن الأولين لعلمهم

بالقرآن والسنن وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقيناً أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن ؛ فانهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر ، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ويتأولون آيات الصفات ، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء فى بعض الصفات ، وبعضهم فى بعض ما جاء فى اليوم الآخر وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن ، ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه ، وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ؛ لكن أخطأوا فى معنى التأويل الذي نفاه الله ، وفى التأويل الذي أثبتوه ، وتسلق بذلك مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالا ولكن بفرية على الله ، وقول عليه ما لا

يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل .

فإن « التأويل » فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحدهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه فى مسائل الصفات إذا صنف بعضهم فى إبطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم آيات الصفات لاتؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم ، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما « التأويل » فى لفظ السلف فله معنيان :

« أحدهما » تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا ،

وهذا — والله أعلم — هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول فى تأويل قوله كذا وكذا ، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

و « المعنى الثانى » فى لفظ السلف — وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً — : هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به .

وبين هذا المعنى والذي قبله بون ؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي . وأما هذا فالتأويل فيه نفس الامور الموجودة فى الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلة . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . ويكون « التأويل » من باب الوجود العيني الخارجي فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة فى الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها ، وتلك الحقائق لاتعرف على ماهي عليه بمجرد الكلام والإخبار إلا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وإخبار ؛ لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب : إما بضرب

المثل ، وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك .

وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها . وقد قدمنا التبيين في ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف :
(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ)
وقوله : (وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ)
وقول الملأ : (أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ)
وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر (ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا) .

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف : (هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ) والعالم بتأويلها : الذي يخبر به . كما قال يوسف : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ) أي في المنام (إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) أي قبل أن يأتيكما التأويل .

وقال الله تعالى : (فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا)
قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً . فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة . والتأويل فى سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا . والتأويل فى الأعراف ويونس تأويل القرآن ، وكذلك في سورة آل عمران .

وقال تعالى في قصة موسى والعالم : (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا) إلى قوله : (وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا) فالتأويل هنا تأويل الأفعال التى فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأويل عمل لا تأويل قول . وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلا ، مثل حول تحويلا ، وعول تعويلا . وأول يؤول تعدية آل يؤول أولاً مثل حال يحول حولا . وقولهم : آل يؤول ، أي عاد إلى كذا ورجع إليه . ومنه « المآل » وهو ما يؤول إليه الشيء ويشاركه فى الاشتقاق الأكبر « الموئل » فإنه من وأل وهذا من أول . والموئل المرجع قال تعالى : (لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا) .

ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر « الآل » فإن آل الشخص من

يؤول إليه ؛ ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه أعظم من المضاف يصلح أن يؤول إليه الآل ، كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل ، والأول أفعل ، لأنهم قالوا في تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى . وفي القصص : (لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ) .

ومن الناس من يقول : فوعل ، ويقول : أولة . إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ؛ بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمى المتقدم أول — والله أعلم — لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل لا صفة مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى ، لا من باب أحمر وحمراء ؛ ولهذا يقولون : جئته من أول أمس ، وقال : (لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) (وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) (وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ) فإذا قيل هذا أول هؤلاء فهو الذي فضل عليهم فى الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ماقبله فيعتمد عليه ، وهذا السابق كلهم يؤول إليه ، فإن من تقدم في فعل فاستن به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه ، فالأول له وصف السؤدد والاتباع .

ولفظ « الأول » مشعر بالرجوع والعود ، و « الأول » مشعر بالابتداء والمبتدأ ؛ خلاف العائد لأنه إنما كان أولا لما بعده فإنه يقال :

(أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) و (أَوَّلِ يَوْمٍ) فما فيـه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف .

وإذا قلنا : آل فـلان ، فالعود إلى المضاف ؛ لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلا ومرجعا لغيره ، لأن كونه مفضلا دل على أنـه مآل ومرجع لا آيل راجع ؛ إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيره آيلا إليه ، وإنما الفضل في كونه هو الذي يرجع إليه ويؤال إليه. فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنـه مفضل فى كونـه مآلا ومرجعـا ، والتفضيل المطلق فى ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدئ والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله إليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام ، أو ما تأوله المتكلم ؛ فإن التفعيل يجري على غير فعل ، كقوله : (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلا وتأولت الكلام تأويلا وأولت الكلام تأويلا . والمصدر واقـع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل ، كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير وهذا خلق الله .

فالتأويل : هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليـه ، أو تأول هو إليه . والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويؤوّل إلى حقيقتـه

التي هي عين المقصود بــه كما قال بعض السلف في قوله (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ) قال حقيقة ، فإنه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بهــا يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذبا وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلا . ومتى كان الخبر وعداً أو وعيــداً فإلى الحقيقــة المطلوبة المنتظرة يؤول ، كما روى عن النبي صــلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا) قال إنها كائنــة ولم يأت تأويلهــا بعد وعن عبدالله قال : خمس قد مضين البطشة واللزام والدخان والقمر والروم .

فصــــــل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله . أو اعتقــاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم . فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : من قال : إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه ، فنقول أما الدليل على [بطلان] ذلك فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنــه جعل ذلك من المتشابه

الداخل فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه . وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا : إن الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة . قالوا في أحاديث الصفات : تمر كما جاءت . ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التى مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه .

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت ، وفى أحاديث الوعيد مثل قوله : « من غشنا فليس منا » وأحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ، ويسمى تحريفه تأويلا بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد فى كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين . و « التأويل المردود » هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل إن هذا هو التأويل المذكور فى الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمه إلا الله ، وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردها ؛ لا التوقف فيها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى ، لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل « سورة الإخلاص » و « آية الكرسي » وأول « الحديد » وآخر « الحشر » وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ) ، و (عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ) ، وأنه (يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ) ، و (ٱلۡمُقۡسِطِينَ) و (ٱلۡمُحۡسِنِينَ) ، وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ) ، (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ) (وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ) (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) (ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ)

(وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ) (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ) (إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) . (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ) (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ) . (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) . (يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ) — إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هـذا فى جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم فى البعض ؟ فإن قلت : هذا فى الجميع كان هذا عناداً ظاهراً وجحدا لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح . فإنا نفهم من قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) معنى ، ونفهم من قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) معنى ليس هو الأول ونفهم من قوله : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) معنى ، ونفهم من قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ) معنى . وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا . وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب — مع انتسابه إلى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة — من يقول : إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علما محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ) يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة فى الباطن ، لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود وعلى حق موجود أم لا ؟ فإن قال : لا ، كان معطلا محضاً ، وما أعلم مسلما يقول هذا . وإن قال : نعم ، قيل له : فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعانى من الرحمة والعلم وكلاهما فى الدلالة سواء؟ فلا بد أن يقول : نعم ؛ لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات . فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض . فيقال له : ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه ، فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع ؟ .

أما « الأول » فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير عليّ عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته .

وأما « الثاني » فيقال لمن أثبت شيئا ونفى آخر : لم نفيت مثلاً حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة فى حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة فى حقنا هي ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه ، قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه وكذلك محبته . وإن قال — وهو حقيقة قوله — : لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل ، وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين ، لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم ، والتخصيص دل على الإرادة ، قيل له الجواب من ثلاثة أوجه :

(أحدها) : أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة . والتقريب والإدناء وأنواع التخصيص التى لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص . والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص . وما سلكه فى مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

(الثاني) : يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا فإنه لاينفيه إلا بمثل ما ينفى به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل

الطمأنينة إليه في هذه المضايق أعظم ودلالته أتم فلأي شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة مع أن النصوص [لم] تفرق ؟ فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها فى إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

« الثالث » يقال له : إذا قال لك الجهمي الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلواً فى البدعة فى الصفات وفى القدر نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلقت بفعله ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده .

والبصريون كأبي علي وأبي هاشم قالوا : تحدث إرادة لا فى محل ، فلا إرادة ، فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ،

وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

كان جوابه أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها والعقل أيضاً ، فإذا أخذ الخصم ينازع فى دلالة النص أو العقل جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود فى الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه فى دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله فى العليم والقدير . وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعانى وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ؛ فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفى به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية والضرورة العقلية والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل ، ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول فى سائر ما سمى ووصف به نفسه كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى .

و « نكتة هذا الكلام » أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع ، وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده مقتض ولا مانع ، فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم ؛ كما أنه فيما أثبته قائم ، إما من كل وجه أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقاً فكذلك هنا ، وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا .

وأما المانع فيبين أن المانع الذي تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفي الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهما ، وإن كان باطلا لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين في الإثبات والنفي ، ولا سبيل إلى النفي ، فتعين الإثبات .

فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته . فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غير مرة .

فإن قال من أثبت هذه الصفات التى هي فينا أعراض ، كالحياة والعلم والقدرة ولم يثبت ما هو فينا أبعاض ، كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلي كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسي ، فإن أثبت تلك على وجه لاتكون أعراضاً أو تسميتها أعراضا لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيبا وأبعاضا ، أو تسميتها تركيبا وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض ، فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية .

قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال ، فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال ، ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز وإن لم يكن له في الشاهد نظير ، قيل له : فأعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير ، فإن نفى عقل هذا نفي عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع ؛ ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفي الجميع ، لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفي الذات ، ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك : أنهم أتوا بألفاظ ليست فى الكتاب ولا في السنة وهى ألفاظ مجملة مثل : « متحيز » و « محدود » و « جسم » و « مركب » ونحو ذلك ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلمة ومدلولا عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ؛ إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ، ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزابا . تارة يغلبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الأول

كهشام بن الحكم الرافضي ، فإنه قد قيل : أول ما تكلم فى الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبى الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس ، فعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : (وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع فى ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والإيمان ، والمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات ، فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم يخرون عليها صما وعمياناً ، ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى . فهذا أحد الوجهين وهو منع أن تكون هذه من المتشابه .

(الوجه الثاني) : أنه إذا قيل : هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمي بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله إما المتشابه وإما الكتاب كله كما تقدم ، ونفي علم تأويله ليس نفي علم معناه كما قدمناه في القيامة وأمور القيامة ، وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن إسحاق في وفد نجران أنهم احتجوا على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (إنا) و (نحن) ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب كما أن ذلك في مسائل المعاد وأولى ، فإن نفي المشابهة بين الله وبين خلقه أعظم من نفي المشابهة بين موعود الجنة وموجود الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفي علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ) وقال تعالى : (الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم .

وقال أيضاً : (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيـه ولم يستثن من ذلك شيئاً ؛ بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) وقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا) ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتـدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحـكم بنفي مخالفه ما لم يتدبر لما تدبر .

وقال علي رضي الله عنه لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله صـلى الله عليه وسلم شيئاً ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه ، وما فى هـذه الصحيفة . فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحـكم قال الله تعالى : (فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « رب مبلغ أوعى من سامع » وقال « بلغوا عني ولو آية » .

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بمـا يوافق دلالتها وبيانها ، ورووا عن النبي صلى الله عليه وسـلم أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم مثـل عبد الله ابن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أعلمَ بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته . وعبد الله بن عبـاس الذي دعا له النبي صلى الله عليه

وسلم وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما فى التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما فى علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم ومثلهما فى جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت ؛ لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس . ولو كان معاني هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيوا الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل .

وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله

تعالى : (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) كيف استوى ، فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وكذلك ربيعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس فى أهل السنة من ينكره .

وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال كيف استوى . ولم يقل مالك الكيف معدوم ، وإنما قال الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ولا تجري ماهيته فى مقال ، ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية .

فإن قيل : معنى قوله : « الاستواء معلوم » أن ورود هذا اللفظ فى القرآن معلوم ، كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف ؛ فإن هذا من باب تحصيل الحاصل فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية . وأيضاً فلم يقل : ذكر الاستواء فى القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ؛ وإنما قال :

الاستواء معلوم . فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة .

وأيضاً فإنه قال : « والكيف مجهول » ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء . وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله : (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ) كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول ، ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم .

وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة : يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية .

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش ، علا على العرش . وقال بعضهم : عبارات أخرى ، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري فى صحيحه بعضها فى آخر كتاب « الرد على الجهمية » . وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية .

وأيضا قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس فى خصوص الصفات؛ بل في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة « يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذريهم » وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا) ، فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ .

وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه » وكما قال تعالى : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ) فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبهم . ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

ومما يبين الفرق بين « المعنى » و « التأويل » أن صبيغاً سأل عمر عن (الذاريات) وليست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سأله عنهـا كره سؤاله لما رآه من قصده ؛ لكن علي كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعا فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . و (الذاريات) و (الحاملات) و (الجاريات) و (المقسمات) فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ، ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر ، وكذلك فى (الجاريات) و (المقسمات) فهذا لا يعلمه إلا الله .

وكذلك فى قوله : (إنا) و (نحن) ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى ؛ فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ؛ لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني ؛ بمنزلة الأسماء المتعددة : مثل العليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ، فإن المسمى واحد ومعاني الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع .

وأما التأويل الذي اختص الله به فحقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك . والكيف مجهول . فإذا قالوا ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره ، قيل هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله . فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل : تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التى لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، وهذا كقوله : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ) وقوله : (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ)

فإن المراد تأويل الخبر الذي أخبر فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي «ينتظر» « ويأتي » و « لما يأتهم » . وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر . وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل فى التأويل لا ينتظر . والله سبحانه أعلم وبه التوفيق ؟

وقال الشيخ الإمام العلامة

القدوة العارف الفقيه ، الحافظ الزاهد العابد ، السالك الناسك ، مفتي الفرق ركن الشريعة ، عالم العصر ، فريد الدهر ؛ ترجمان القرآن وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية الحراني ، تغمده الله برحمته .

فصـــل

في إقسام القرآن[1]

وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته .

---

(١) تسمى « أقسام القرآن » .

فالقسم إما على جملة خبرية ، وهو الغالب ؛ كقوله تعالى : (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ) .

وإما على جملة طلبية كقوله تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر ، وقد يراد به محض القسم . والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ؛ فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها ، وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته ؛ فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس .

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب . وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيرا ، كقوله تعالى : (لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ) وقوله : (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ) .

ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام ؛ لأن المراد أنك لو رأيته

لرأيت هولاً عظيما ؛ فليس فى ذكر الجواب زيادة على ما دل[1] المحرم وهو أيضا تنبيه . فإذا أقسم به وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم ، وكذلك إذا أريد الحلول فإنه هو السلبى فالمعنى واحد .

وقد أقسم بـ (التين والزيتون) و (البلد الأمين) . والجواب مذكور فى قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ) وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة ، وهذه المكابدة تقتضي قوة صاحبها ، وكثرة تصرفه واحتياله ، فقال تعالى : (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ) فهذا الإنسان من جنس أولئك الأمم ، ومن جنس الذي قال : (مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ) له قوة يكابد بها الأمور ، وكل أهلكه أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله ؟ ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد ، فيعلم ما فعل ؟

والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء ؛ بل بهما يحصل كل شيء ، وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد ؛ فإنه إذا كان قادرا أمكن الجزاء ، وإذا كان عالما أمكن الجزاء فبالعدل يقدر ما عمل ومن لم يكن قادراً عالما لم يمكنه الجزاء ، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه

(١) هنا سقط بعض الكلام .

جزاؤه ، والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل إن جازاه بلا علم كان ظالما معتديا ، فلا بد له من العلم بما فعل .

ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود ، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها ؛ ليكون عملهم بعلم (١) ذكر أنه خلق الإنسان فى كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ ولن لنفي المستقبل ، يقول : أيحسب أن لن يقدر عليه فى المستقبل أحد ، ولهذا كان ذاك الخائف من ربه ، الذي أمر أهله بإحراقه وذرايته يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة ، فقال : « لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ماعذبه أحداً من العالمين » .

وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها ؛ كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه ، كما فى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) فقال النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت : « أعوذ بوجهك ، أعوذ بوجهك » (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) فقال : « هاتان أهون » وذلك لأنه تكلم فى ذكر القدرة ونوع المقدور ، كما يقول القائل : أين تهرب مني ؟ أنا أقدر أن أمسكك .

وكذلك فى العلم بالرؤية ، كقوله هنا : (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ)

---

(١) بياض بالأصل

وقوله تعالى فى الذي ينهى عبداً إذا صلى : (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ)
وقوله تعالى : (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ)
وقوله : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .

وقوله تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) وأمثال ذلك . فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها وإحصائه لها يتضمن الوعيد بالجزاء عليها ، كما يقول القائل : قد علمت ما فعلت ، وقد جاءتني أخبارك كلها وأمثال ذلك . فليس المراد الإخبار بقدرة مجردة ، وعلم مجرد ؛ لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء ؛ إذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء ؛ ويبقى موقوفاً على مشيئة المجازي ، لا يحتاج معه إلى شيء حينئذ ؛ فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة إليه ، وعمل الحسنات التى تمحو السيئات .

فصل

وهو سبحانه وتعالى لما أقسم بـ (الصافات) ؛ و (الذاريات) و (المرسلات) ذكر المقسم عليه . فقال تعالى : (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ) وقال تعالى : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ) وقال تعالى : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ) . ولم يذكره في النازعات ؛ فإن الصافات هي الملائكة وهو لم يقسم على وجودها ، كما لم يقسم على وجود نفسه ؛

إذ كانت الأمم معترفة بالصافات ، وكانت معرفته ظاهرة عندهم لا يحتاج إلى إقسام بخلاف التوحيد ، فإنه كما قال تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

وكذلك الملائكة يقر بها عامة الأمم ، كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد ، وثمود ، وفرعون ، مع شركهم وتكذيبهم بالرسل ، أنهم كانوا يعرفون الملائكة . قال قوم نوح : (مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) وقال [تعالى][1] : (أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) ،

وقال فرعون : (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

وكذلك مشركوا العرب ، قال تعالى : (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) وقال تعالى : (وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا) ، وقال تعالى عن الأمم مطلقاً : (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)

---

(١) أضيفت حسب مفهوم السياق .

فكانت هذه الأمم المكذبة للرسل المشركة بالرب مقرة بالله وبملائكته ، فكيف بمن سواهم ؟ فعلم أن الإقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم ؛ فلهذا لم يقسم عليه وإنما أقسم على التوحيد ؛ لأن أكثرهم مشركون .

وكذلك (الذاريات) و (الحاملات) و (الجاريات) هي أمور مشهودة للناس ، و (المقسمات أمراً) هم الملائكة ، فلم يكن فيما أقسم به ما أقسم عليه ؛ فذكر المقسم عليه . فقال تعالى : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) .

و (المرسلات) سواء كانت هي الملائكة النازلة بالوحي والمقسم عليه الجزاء في الآخرة ، أو الرياح ، أو هذا وهذا ؛ فهي معلومة أيضاً .

وأما (النازعات) غرقا فهي الملائكة القابضة للأرواح ، وهذا يتضمن الجزاء ، وهو من أعظم المقسم عليه . قال تعالى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) وقال تعالى : (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) (١) هو ولا يعين على عبادته إلا هو ، وهذا يقين يعطي الاستعانة والتوكل ،

---

(١) من هنا سقط بعض الكلام .

وهـو يقـين بالقدر الذي لم يقـع ؛ فإن الاستعـانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل .

فأما ما وقع فإنمـا فيه الصبر والتسليم والرضا ، كما فى حـديث عمار بن ياسر رضي الله عنـه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليـه وسلم : « أسألك الرضا بعد القضاء » وقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » يوجب الإعانة ؛ ولهذا سنها النبي صلى الله عليه وسـلم إذا قال المؤذن : « حي على الصلاة . فيقول : المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا قال : حي على الفلاح قال المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله »

وقال المؤمن لصاحبه : (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ) ولهذا يؤمر بهـذا من يخاف العـين على شيء . فقوله : ما شاء الله . تقديره : ما شاء الله كان ، فلا يأمـن ؛ بـل يؤمن بالقدر . ويقول : لا قوة إلا بالله . وفي حـديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليـه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هي كنز من كنوز الجنة » و « الـكنز » مال مجتمع لا يحتاج إلى جمـع ؛ وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى .

ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرتـه ، وأن الخلـق ليس منهم شيء إلا ما أحـدثه الله فيهم ، فإذا انقطـع طلب القلب

للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلا هو . قال تعالى : (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ) وقال تعالى : (وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ)

وقال تعالى : (وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى : (قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ) ؟

وقال صاحب يس (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده فى غير موضع . وفى الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . قال تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا)

والله تعالى أمر بعبادته والتوكل عليه ، قال تعالى : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقال تعالى : (قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) ، وقال موسى : (يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) .

وقال شعيب : (وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

وقال المؤمنون : (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ) وقال تعالى : (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا) وقال تعالى : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) .

فافترق الناس هنا أربعة أصناف :

صنف لا يعبدونه ولا يتوكلون عليه ، وهم شرار الخلق .

وصنف يقصدون عبادته بفعل ما أمر ، وترك ما حظر ، لكن لم يحققوا التوكل والاستعانة ، فيعجزون عن كثير مما يطلبونه ، ويجزعون فى كثير من المصائب .

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر ، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله ؛ فهؤلاء فى الحقيقة لا يستعينونه ولا يطلبون منه صلاح قلوبهم ، ولا تقويمها ولا هدايتها . وهؤلاء مخذولون كما هم عند الأمة كذلك . وقوم يؤمنون بالقدر قولا واعتقاداً ؛ لكن لم تتصف به قلوبهم علما وعملا ، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة ؛ فهم أيضاً ضعفاء عاجزون .

وصنف نظـر إلى جانب القدرة والمشيئـة ، وأن الله تعـالى هو المعطي والمانع ، والخافض والرافع ؛ فغلب عليهم التوجه إليه من هـذه الجهة والاستعانة به ، والافتقار إليه لطلب ما يريدونه ، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه ؛ بل قتل له ونيل لأغراضه ؛ لكن لاعاقبة لهم ؛ فإن العاقبة للتقوى ؛ بل آخرتهم آخرة ردية .

وليس الكلام فى الكفار والظلمة المعرضـين عن الله فإن هؤلاء دخلوا في القسم الأول الذين لا عبادة لهم ولا استعانة ؛ ولكن الكلام في قوم عندهم توجه إلى الله وتأله ، ونوع من الخشية والذكر والزهد ، لكن يغلب عليهم التوجه بإرادة أحدهم وذوقـه ووجده ، وما يستحليه ويستحبه ، لا بالأمر الشرعى وهم أصناف :

منهم المعرض عن التزام العبادات الشرعية ، مـع ما يحصل له من الشياطـين من كشف له أو تأثـير . وهؤلاء كثير منهـم يموت على غير الإسلام .

ومنهم من يقوم بالعبادات الشرعيـة الظاهرة كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وترك المحرمات ؛ لكن فى أعمال القلوب لا يلتزم الأمر الشرعى ؛ بل يسعى لما يحبه ويريده والله تعالى قال : (كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ

مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ) وهو سبحانه يعطي السلطان والمال للبر والفاجر ، فقد يعطي أحد هؤلاء تصرفا : إما بقهر عدوه وإما بنصر وليه ، كما تعطي الملوك . وقد يعطى نوعا من المكاشفة إما بإخبار بعض الجن له ، وقد يعرف أنه من الجن ، وقد لا يعرف ، وإما بغير ذلك .

وقد يقول الواحد من هؤلاء : أنا آخذ من الله وغيري يأخذ من محمد صلى الله عليه وسلم ، فيرى بحا له في ذاك وتفرده أن ما أوتيه من التصرف والمكاشفة ، يحصل له بغير طريق محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صادق فى ذلك ؛ لكن هذه في الحقيقة وبال عليه ؛ فإن من تصرف بغير أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذ مالم يبحه له الرسول . فولى وعزل ، وأعطى ومنع بغير أمر الرسول ، وقتل وضرب بغير أمره ، وأكرم وأهان بغير أمره ، وجاءه خطاب فى باطنه بالأمر والنهي ؛ فاعتقد أن الله أمره ونهاه من غير واسطة الرسول ، كانت حالته هذه كلها من الشيطان ، وكان الشيطان هو الذي يأمره وينهاه ؛ فيأمره فيتصرف ، وهو يظن أنه يتصرف بأمر الله ؛ ولعمري هو يتصرف بأمر الله الكونى القدري بواسطة أمر الشيطان ، كما قال تعالى فى السحرة : (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) كما أن المؤمن يتصرف بأمر الله الكونى القدري ؛ لكن بواسطة أمر الرسول المبلغ له عن الله عز وجل .

فالحلال عنده ما أحله الله ورسوله ، والحرام ماحرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ؛ بخلاف ذاك فإنه لا يأخذ عن الرسول الأمر والنهي الباطن ، ولا ما يفعله ويأمر به ، وهذا الضرب كثير فى المشايخ أرباب القلوب والأحوال الذين ضعف علمهم بالكتاب والسنة ومتابعة الرسول ، وغلب عليهم ما يجده أحدهم في قلبه ، وما يؤمر به فى باطنه ، سواء وافق الرسول أو خالفه .

ثم تفاوتوا فى ذلك بحسب قربهم من الرسول وبعدهم منه ؛ فكثير منهم بعد عنه حتى صار يرى أنه يعاون الكفار على قتال المسلمين ، ويرى أن الله سبحانه أمره بذلك ، ويعتقد أن أهل الصفة فعلوا ذلك .

ومنهم من يرى أن الرسول لم يرسل إليه وإلى أشكاله ، وإنما أرسل إلى العوام .

ومنهم من يعتقد أن الرسول كان خاضعا لأهل الصفة ، وكانوا مستغنين عنه ، إلى أمثال هذه الأصناف التى كثرت في هذه الأزمنة .

وهؤلاء كلهم يدعون علم الحقيقة ، ويقولون : الحقيقة لون والشريعة لون آخر ، ويجمعهم شيئان : أن لهم تصرفا وكشفا خارجا عن ماللعامة ، وأنهم معرضون عن وزن ذلك بالكتاب والسنة ، وتحكيم الرسول فى ذلك ؛ فهم بمنزلة الملوك الذين لهم ملك يسوسونه بغير أمر الله ورسوله ؛ لكن الملوك لا يقول أحدهم إن الله أمرنى بذلك ، ولا أنى ولي الله ، ولا أن لي مادة من الله خارجة عن الرسول ، ولا أن الرسل لم تبعث إلى مثلي ، وإنما الملوك يقصدون أغراضهم ولا يجعلونها دينا .

وهؤلاء يجعلون أغراضهم التى هي من أعظم الظلم والفساد بل والكفر ، يجعلون ذلك دينا يدين به أولياء الله عندهم ؛ لأن هذه الأمور إنما تحصل لهم بنوع من الزهادة والعبادة ؛ ولكن ليس هو الزهد والعبادة التى بعث الله بها رسوله ؛ بل يشبهه حال أهل الكتاب والمشركين من عباد الهند والنصارى وأمثالهم .

ولهذا تظهر مشابهتهم لعباد المشركين وأهل الكتاب ، حتى أن من رأى عباد الهنود ثم رأى مولهي بيت الرفاعى أنكر وجود هؤلاء فى ديار الإسلام .

وقال : هؤلاء مثل عباد المشركين من الهند سواء ، وأرفع من

هؤلاء من يشبه عباد النصارى ورهبانهم فى أمور كثيرة خارجة عن شريعة الإسلام ، فلما كان فيهم دين مبتدع من جنس دين المشركين وأهل الكتاب ظنوا ما يظنه أولئك من أن هذا دين صحيح ، وأنه دين يقرب إلى الله ، وأن أهله أولياء الله ؛ فإن جميع طوائف العلماء والعباد من جميع أهل الملل يظنون [1] .

---

(١) آخر ما وجد من الأصل .

قال شيخ الإسلام



رب يسر وأعن برحمتك

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

أما بعد فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية . تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه ، والتمييز فى منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل ؛ فإن الكتب المصنفة فى التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح والحق المبين .

والعلم إما نقل مصدق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم ،

وما سوى هذا فإما مزيف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنـه بهرج ولا منقود .

وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبـل الله المتـين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الترديد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله .

قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ) وقال تعـالى : (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقال تعالى : (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

وقد كتبت هذه المقدمة مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

فصل

يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ؛ ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين ، قيل : ثمان سنين ذكره مالك .

وذلك أن الله تعالى قال : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ)

وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ) وقال : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ) وتدبر الـكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وكذلك قال تعالى : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وعقل الـكلام متضمن لفهمه .

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معـانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك ، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم ، كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بـكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهـذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلا جداً ، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيـان فيه أكثر ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحـابة ، كما قال مجاهد عرضت : المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، ولهذا قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عـن مجاهد أكثر من غيره .

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم

السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما يتكلمون فى بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

فصـــــل

الخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان :

« أحدهما » أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ــ بمنزلة الأسماء المتكافئة التى بين المترادفة والمتباينة ــ ، كما قيل فى اسم السيف الصارم والمهند ، وذلك مثل أسماء الله الحسنى ، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم وأسماء القرآن ، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر ؛ بل الأمر كما قال تعالى : (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) .

وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة ، وعلى الصفة التى

تضمنها الاسم . كالعليم يدل على الذات والعلم ، والقدير يدل على الذات والقدرة ، والرحيم يدل على الذات والرحمة ، ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعى الظاهر : فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون : لا يقال هو حي ، ولا ليس بحي ؛ بل ينفون عنه النقيضين ؛ فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات ، وإنما ينكرون ما فى أسمائه الحسنى من صفات الإثبات ، فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقاً لغلاة الباطنية فى ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك .

وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته ، وعلى ما فى الاسم من صفاته . ويدل أيضاً على الصفة التى فى الاسم الآخر بطريق اللزوم ، وكذلك أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل محمد ، وأحمد ، والماحي ، والحاشر ، والعاقب ، وكذلك أسماء القرآن : مثل القرآن ، والفرقان ، والهدى ، والشفاء ، والبيان ، والكتاب . وأمثال ذلك .

فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم ، وقد يكون الاسم علما ، وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي) ما ذكره؟ فيقال له : هو القرآن مثلا ، أو هو ما أنزله من الكتب . فإن الذكر مصدر . والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول .

فإذا قيل : ذكر الله بالمعنى الثاني كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه ، وهذا هو المراد فى قوله : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى) لأنه قال قبل ذلك : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) وهداه هو ما أنزله من الذكر ، وقال بعد ذلك : (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا) .

والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل ، أو هو ذكر العبد له ، فسواء قيل ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمى واحداً .

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به ، فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى ، مثل أن يسأل عن القدوس السلام المؤمن ، وقد علم أنه الله ؛ لكن مراده ما معنى كونه قدوساً سلاماً مؤمناً ونحو ذلك .

إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه ، وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر ، كمن يقول : أحمد هو الحاشر والماحى والعاقب ، والقدوس هو الغفور

والرحيم أي أن المسمى واحد ، لا أن هـذه الصفة هي هـذه الصفة ، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس ، مثـال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم .

فقال بعضهم : هو « القرآن » : أي اتباعه ؛ لقول النبي صلى الله عليـه وسـلم فى حديث علي الذي رواه الترمذي ، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحـكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وقال بعضهم : هو « الإسلام » لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو من فوق الصراط ، وداع يدعو على رأس الصراط ، قال : فالصراط المستقيم هـو الإسلام والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي على رأس الصراط كتـاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فهذان القولان متفقان ؛ لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول مـن قال : هو « السنة والجماعة » وقول من قال : « هو طريق العبودية » وقول من قال : « هو طاعة الله ورسوله » صلى الله عليـه وسـلم وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا

إلى ذات واحدة ؛ لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

« الصنف الثانى » أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع — لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه ، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى « لفظ الخبز » فأرى رغيفاً ، وقيل له : هذا . فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده — مثال ذلك ما نقل فى قوله : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ) .

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات ، والمنتهك للمحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ، (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ) .

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي فى أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار ، ويقول [الآخر] السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم فى آخر سورة البقرة فإنه ذكر المحسن بالصدقة ، والظالم يأكل الربا ، والعادل بالبيع ، والناس فى الأموال إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم ، فالسابق المحسن بأداء

المستحبات مع الوجبات ، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ، ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأقاويل . فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره ؛ فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق . والعقل السليم يتفطن للنوع ، كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف ، فقيل له : هذا هو الخبز .

وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصاً ؛ كأسباب النزول المذكورة فى التفسير ؛ كقولهم إن آية الظهار نزلت فى امرأة أوس بن الصامت ، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلانى أو هلال بن أمية ، وأن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، وأن قوله : (وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) نزلت فى بنى قريظة والنضير ، وأن قوله : (وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥ) نزلت فى بدر ، وأن قوله : (شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ) نزلت فى قضية تميم الداري وعدي بن بداء ، وقول أبي أيوب إن قوله : (وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ) نزلت فينا معشر الأنصار الحديث ، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى . أو فى قوم من المؤمنين .

فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ؛ فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا ؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ .

والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته [أيضاً] .

ومعرفة « سبب النزول » يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها .

وقولهم نزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا .

وقد تنازع العلماء فى قول الصاحب نزلت هذه الآية فى كذا ، هل يجرى مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجرى مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله فى المسند ، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ؛ بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند .

وإذا عرف هذا فقول أحدهم نزلت فى كذا لا ينافى قول الآخر نزلت فى كذا إذا كان اللفظ يتناولهما ، كما ذكرناه في التفسير بالمثال ، وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله وذكر الآخر سبباً ؛ فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب ، أو تكون نزلت مرتين مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوع التفسير : تارة لتنوع الأسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه ، كالتمثيلات هما الغالب فى تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف .

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين ؛ إما لكونه مشتركا فى اللفظ كلفظ (قسورة) الذي يراد به الرامي ، ويراد به الأسد . ولفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره ،

وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحــد النوعين أو أحــد الشيئين كالضمائر فى قــوله : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) وكلفظ : (وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ) وما أشبه ذلك.

فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالهــا السلف ، وقد لا يجوز ذلــك ، فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بهــا هذا تارة وهــذا تارة ، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد بــه معنياه ، إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء : المالكية ، والشافعية ، والحنبلية وكثير من أهل الــكلام ، وإمــا لكون اللفظ متواطئــاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القــولان كان من الصنف الثانى .

ومــن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض النــاس اختلافاً أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مـــترادفة ، فإن الترادف في اللغة قليل ، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم ، وقل أن يعــبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه ؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجـــاز القرآن ، فإذا قال القــائل : (يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا) إن المور هــو الحركة كان تقريبــاً إذ المور حركة خفيفة سريعة .

وكذلك إذا قال : « الوحي » الإعلام ، أو قيل(أوحينا اليك) أنزلنا إليك أو قيل : (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أي أعلمنا وأمثال ذلك ، فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي ، والقضاء إليهم أخص من الإعلام ، فإن فيه إنزالا إليهم وإيحاء اليهم .

والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض ، كما يقولون في قوله : (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ) أي مع نعاجه و (مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) أي مع الله ونحو ذلك ، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه ، وكذلك قوله : (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) ضمن معنى يزيغونك ويصدونك ، وكذلك قوله : (وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ) ضمن معنى نجيناه وخلصناه ، وكذلك قوله : (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ) ضمن يروى بها ونظائره كثيرة .

ومن قال (لا ريب) لا شك فهذا تقريب وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة ، كما قال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وفي الحديث أنه مر بظبي حاقف فقال : «لا يريبه أحد » فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة فالريب ضده ضمن الاضطراب والحركة . ولفظ « الشك » وإن قيل : إنه يستلزم هذا المعنى ؛ لكن لفظه لا يدل عليه .

وكذلك اذا قيل : ذلك الكتاب هذا القرآن فهـذا تقريب ؛ لأن المشار إليه وان كان واحداً ، فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة ، ولفظ « الكتـاب » يتضمن من كونه مكتوبا مضمومـاً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً ، فهذه الفروق موجـودة فى القرآن ، فإذا قال أحـدهم : (ان تبسل) أي تحبس وقال الآخر : ترتهن ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضـاد ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم ، وجمع عبارات السلف فى مثل هذا نافع جداً ، فان مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ، ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم ، كما يوجد مثل ذلك فى الأحكام .

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم بل متواتر عند العامة أو الخاصة ، كما فى عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها ، وفرائض الزكاة ونصبها ، وتعيين شهر رمضان ، والطواف ، والوقوف ، ورمي الجمار ، والمواقيت وغير ذلك .

ثم اختلاف الصحـابة في الجد والأخـوة وفي المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً فى جمهور مسائل الفرائض ، بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء ، والكلالة ؛ من الإخوة والأخوات ومن نسائهم كالأزواج ، فإن الله أنزل فى الفرائض ثلاث آيات مفصلة

ذكر في الأولى الأصول والفروع ، وذكر فى الثـانية الحاشيـة التى ترث بالفرض كالزوجين وولد الأم ، وفى الثالثة الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الأخوة لأبوين أو لأب ، واجتماع الجد والأخـوة نادر ؛ ولهـذا لم يقع فى الإسلام إلا بعد موت النبى صلى الله عليه وسـلم ، والاختـلاف قد يكون لخفاء الدليل أو لذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون للغلط فى فهم النص ، وقـد يكون لاعتقـاد معارض راجح ، فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله .

فصـــل

الاختلاف فى التفسير على « نوعين » منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك — إذ العلم إما نقل مصدق وإما استدلال محقق ، والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم ، والمقصـود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم ، وهذا هو — النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيـح منه والضعيف ، ومنـه مالا يمكن معرفة ذلك فيه . وهذا « القسم الثانى من المنقول » وهو مالا طريق لنا إلى الجزم بالصـدق منـه عامته مما لا فائـدة فيه ، فالـكلام فيـه من فضول الـكلام .

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلا ، فمثال مالا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف ، وفى البعض الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفى مقدار سفينة نوح وما كان خشبها ، وفى اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولا نقلا صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم — كاسم صاحب موسى أنه الخضر — فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب — كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب — فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه »

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن بعض الصحابة نقلا صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى ؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم

الصاحب فيما يقوله ، فكيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك .

وأما « القسم الأول » الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد ، فكثيراً ما يوجد فى التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، والنقل الصحيح يدفع ذلك ؛ بل هذا موجود فيما مستنده النقل ، وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل .

فالمقصود أن المنقولات التى يحتاج إليها فى الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول فى المغازي والملاحم ؛ ولهذا قال الإمام أحمد ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير ، والملاحم ، والمغازي، ويروى ليس لها أصل أي إسناد ؛ لأن الغالب عليها المراسيل ، مثل ما يذكره عروة بن الزبير ، والشعبي . والزهري ، وموسى بن عقبة ، وابن إسحاق ومن بعدهم ، كيحيى بن سعيد الأموي ، والوليد بن مسلم ، والواقدي ونحوهم في المغازي ؛ فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق ، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت

عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا عظم الناس كتاب أبى إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك ، وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار .

وأما « التفسير » فإن أعلم الناس به أهل مكة ؛ لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاووس ، وأبى الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ؛ وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد ابن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب .

و « المراسيل » إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً ، فإن النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر ، وإما أن يكون كذبا تعمد صاحبه الكذب ، أو أخطأ فيه ؛ فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب .

فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات ، وقد علم أن المخبرين لم يتواطآ على اختلاقه ، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً

بلا قصد علم أنه صحيح ، مثــل شخص يحدث عن واقعــة جرت ، ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ، ويأتى شخص آخر قد علم أنه لم يواطئ الأول ، فيذكر مثل ماذكره الأول من تفــاصيل الأقوال والأفعال ، فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق فى الجملة ، فإنه لو كان كل منهما كذبها عمداً أو خطأ ، لم يتفق فى العادة أن يأتى كل منهما بتلك التفاصيل التى تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه ، فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتــاً وينظم الآخر مثله ، أو يكذب كذبة ويــكذب الآخر مثلها ، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروي فلم تجر العــادة بأن غــيره ينشيئ مثلها لفظاً ومعنى مع الطول المفرط ، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه ، وكذلك إذا حدث حديثاً طويلا فيه فنون ، وحدث آخر بمثله ، فإنه إما أن يكون واطأه عليه أو أخذه منه ، أو يكون الحــديث صدقاً ، وبهذه الطريق يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هــذا الوجه من المنقولات ، وان لم يكن أحدها كافيــاً إما لإرساله وإمــا لضعف ناقله . لــكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التى لا تعلم بهذه الطريق فلا يحتاج ذلــك إلى طريــق يثبت بهــا مثل تلك الألفـاظ والدقائق ، ولهــذا ثبتت بالتواتر غــزوة بدر وأنها قبل أحد ، بل يعلم قطعاً أن حمزة وعليــاً وعبيدة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد ،

وأن علياً قتل الوليد ، وأن حمزة قتل قرنه ، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شيبة .

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف ، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي ، وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك .

ولهذا إذا روي الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجهين ، مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر جزم بأنه حق ، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب ، وانما يخاف على أحدهم النسيان والغلط ؛ فان من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب ، وابن عمر ، وجابر ، وأبي سعيد وأبى هريرة وغيرهم علم يقيناً أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا عمن هو فوقهم ، كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ، ويقطع الطريق ، ويشهد بالزور ونحو ذلك .

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة ، والشام والبصرة ، فإن من عرف مثل أبي صالح السمان ، والأعرج ، وسليمان بن يسار ، وزيد بن أسلم وأمثالهم علم قطعاً أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب فى الحديث ،

فضلا عمن هو فوقهم ، مثل محمد بن سيرين ، والقاسم بن محمد ، أو سعيد بن المسيب ، أو عبيـــدة السلمانى ، أو علقمة ، أو الأسود أو نحوهم . وإنما يخاف على الواحد من الغلط ؛ فإن الغلط والنسيان كثيراً ما يعرض للإنسان ، ومن الحفاظ من قـــد عرف الناس بعده عن ذلك جداً ، كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم لاسيما الزهري فى زمانه والثوري في زمانه ، فإنه قد يقول القائل : إن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه .

و « المقصود » أن الحديث الطويل إذا روي مثــلا من وجهــين مختلفين ، من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطاً ، كما امتنع أن يكون كذبا؛ فإن الغلط لا يكون فى قصة طويلة متنوعة ، وإنما يكون فى بعضها ، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غــير مواطأة امتنع الغلط في جميعها ، كما امتنع الكذب فى جميعها من غير مواطأة .

ولهذا إنما يقع فى مثــل ذلك غلط في بعض ما جرى فى القصة ، مثل حديث اشتراء النبي صلى الله عليه وسلم البعير من جابر ؛ فإن من تأمل طرقه علم قطعاً أن الحديث صحيح ، وإن كانوا قـــد اختلفوا فى مقدار الثمن . وقد بين ذلك البخاري فى صحيحــه ، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم ممـا يقطع بأن النبي صلى الله عليـه وسلم قاله ؛ لأن غالبه من هذا النحو ؛ ولأنه قـــد تلقاه أهل العــلم بالقبول والتصديق

والأمة لا تجتمع على خطأ ؛ فلو كان الحديث كذبا في نفس الأمر ؛ والأمة مصدقة له قابلة له لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب ، وهذا إجماع على الخطإ وذلك ممتنع ، وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر ، فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظنى أن يكون الحق فى الباطن ؛ بخلاف ما اعتقدناه . فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً .

ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن « خبر الواحد » إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أنه يوجب العلم ، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه ، من أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ؛ ولكن كثيراً من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء ، وأهل الحديث والسلف على ذلك ، وهو قول أكثر الأشعرية ، كأبي إسحق وابن فورك ، وأما ابن الباقلاني فهو الذي أنكر ذلك ، وتبعه مثل أبي المعالي وأبي حامد وابن عقيل وابن الجوزي وابن الخطيب والآمدي ونحو هؤلاء ، والأول هو الذي ذكره الشيخ أبو حامد وأبو الطيب وأبو إسحق وأمثاله من أئمة الشافعية ، وهو الذي ذكره القاضي عبد الوهاب وأمثاله من المالكية ،

وهو الذي ذكره أبو يعلى ، وأبو الخطاب ، وأبو الحسن بن الزاغوني ، وأمثالهم من الحنبلية . وهو الذي ذكره شمس الدين السرخسي وأمثاله من الحنفية ، وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع بـه فالاعتبار فى ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث ، كما أن الاعتبار فى الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة .

و « المقصود هنا » أن تعدد الطرق مع عـدم التشاعر أو الاتفاق فى العادة يوجب العلم بمضمون المنقول ؛ لكن هذا ينتفع بـه كثيراً في علم أحوال الناقلـين . وفي مثل هـــذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك ؛ ولهذا كان أهل العلـم يكتبون مثل هذه الأحاديث ، ويقولون : إنه يصلح للشواهد والاعتبار مالا يصلح لغيره ، قال أحمد : قد أكتب حديث الرجل لأعتبره ومثل هـذا بعبد الله بن لهيعة قاضي مصر ؛ فإنــه كان من أكثر الناس حديثـاً ومن خيار الناس ؛ لكن بسبب احتراق كتبه وقع فى حديثـه المتأخر غلط ، فصار يعتبر بذلك ويستشهد به ، وكثيراً ما يقترن هو والليث بن سعد والليث حجة ثبت إمام .

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبـين لهم أنـه غلط فيها بأمور يستدلون بها ، ويسمون هـذا « علم علل الحديث »

وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه ، وغلطه فيه عرف ؛ إما بسبب ظاهر كما عرفوا « أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال » ، وأنه « صلى فى البيت ركعتين » وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حراما ؛ ولكونه لم يصل مما وقع فيه الغلط ، وكذلك أنه « اعتمر أربع عمر » وعلموا أن قول ابن عمر : « إنه اعتمر فى رجب » مما وقع فيه الغلط ، وعلموا أنه تمتع وهو آمن فى حجة الوداع ، وأن قول عثمان لعلي : « كنا يومئذ خائفين » مما وقع فيه الغلط ، وأن ما وقع فى بعض طرق البخاري « أن النار لا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر » مما وقع فيه الغلط ، وهذا كثير .

والناس فى هذا الباب طرفان : طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله لا يميز بين الصحيح والضعيف ، فيشك فى صحة أحاديث ، أو فى القطع بها مع كونها معلومة مقطوعا بها عند أهل العلم به ، وطرف ممن يدعى اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثا بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته ، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة ، أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم . مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط .

وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك ، فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك ، مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو فى الفضائل ، مثل حديث يوم عاشوراء وأمثاله مما فيه أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً .

وفي « التفسير » من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري فى فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم .

و « الثعلبي » هو فى نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ، و « الواحدي » صاحبه كان أبصر منه بالعربية ؛ لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف ، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة .

والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة ، وحديث علي الطويل فى تصدقه بخاتمه فى الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم ، ومثل ما روى فى قوله : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أنه علي (وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) أذنك يا علي .

فصـــــل

وأما النوع الثانى من مستندي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين ــ حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ؛ فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق ، ووكيع ، وعبد بن حميد ، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم . ومثل تفسير الإمام أحمد ، وإسحق بن راهويه ، وبقي بن مخلد ، وأبي بكر بن المنذر ، وسفيان بن عيينة ، وسنيد ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبي سعيد الأشج ، وأبي عبد الله بن ماجه . وابن مردويه ــ « إحداهما » قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها . و « الثانية » قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه والمخاطب به .

فـ « الأولون » راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

و « الآخرون » راعوا مجرد اللفظ ، وما يجوز عندهم أن يريد بـه العربى ، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام . ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحـة المعنى الذي فسروا به القرآن ، كما يغلط فى ذلك الآخرون ، وإن كان نظـر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

والأولون « صنفان » : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على مالم يدل عليه ولم يرد به ، وفى كلا الأمرين قـد يكون ما قصدوا نفيـه أو إثباتـه من المعـنى باطـلا ، فيكون خطؤهم فى الدليـل والمدلول ، وقـد يكون حقـاً فيكون خطؤهم فى الدليـل لا فى المدلول .

وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقـع أيضاً فى تفسير الحديث ، فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول ــ مثـل طوائف من أهل البدع ــ اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون عـلى ضلالة ، كسلف الأمة وأئمتهـا ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم . تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتـأولون ما يخالف مذهبهم بمـا يحرفون به الـكلم عن

مواضعه ، ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والروافض . والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية ، والمرجئة ، وغيرهم .

وهذا كالمعتزلة مثلا فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ؛ مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي ، ومثل كتاب أبي علي الجبائي . والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، ولعلى بن عيسى الرمانى ، والكشاف لأبى القاسم الزمخشري ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة .

وأصول المعتزلة « خمسة » يسمونها هم : التوحيد . والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين . وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

و « توحيدهم » هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : إن الله لا يرى ، وإن القرآن مخلوق ، وإنه ليس فوق العالم ، وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة ، ولا حياة ولا سمع ، ولا بصر ولا كلام ، ولا مشيئة ولا صفة من الصفات .

وأما « عدلهم » فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها . ولا هو قادر عليها كلها ؛ بل عندهم أن أفعال العباد لم

يخلقها الله لا خيرها ولا شرها ، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته ، وقد وافقهم على ذلك متأخروا الشيعة ، كالمفيد ، وأبى جعفر الطوسي وأمثالهما ، ولأبى جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة ؛ لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثني عشرية ؛ فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلي .

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج « إنفاذ الوعيد فى الآخرة » وأن الله لا يقبل فى أهل الكبائر شفاعة ، ولا يخرج منهم أحداً من النار . ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة والكرامية والكلابية وأتباعهم ؛ فأحسنوا تارة وأساءوا أخرى ، حتى صاروا فى طرفى نقيض ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن ، إما دليلا على قولهم أو جواباً على المعارض لهم .

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في

كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله . وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك .

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ، ثم الفلاسفة ، ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر فى الفلاسفة والقرامطة والرافضة ، فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم : (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) هما أبو بكر وعمر ، و (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) أي بين أبى بكر وعلي في الخلافة ، و (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) هي عائشة ، و (فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ) طلحة والزبير ، و (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ) علي وفاطمة ، و (ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) الحسن والحسين ، (وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ) في علي بن أبى طالب ، و (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ) علي بن أبى طالب ، و (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ) هو علي، ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو تصدقه بخاتمه فى الصلاة ، وكذلك قوله (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) نزلت فى علي لما أصيب بحمزة .

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله: (ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ) أن الصابرين رسول الله، والصادقين أبو بكر، والقانتين عمر. والمنفقين عثمان، والمستغفرين علي. وفي مثل قوله: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ) أبو بكر (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) عمر (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) عثمان (تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) علي.

وأعجب من ذلك قول بعضهم: (وَٱلتِّينِ) أبو بكر (وَٱلزَّيْتُونِ) عمر (وَطُورِ سِينِينَ) عثمان (وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) علي، وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص، وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) كل ذلك نعت للذين معه، وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر. و « المقصود هنا » أنها كلها صفات لموصوف واحد وهم الذين معه، ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد. وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقوله: إن قوله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) أريد بها علي وحده، وقول بعضهم: أن قوله: (وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ) أريد بها أبو بكر وحده، وقوله: (لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ) أريد بها أبو بكر

وحده ونحو ذلك .

و « تفسير ابن عطية وأمثاله » أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل . فإنه كثيراً ما ينقل من « تفسير محمد بن جرير الطبري » وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال . ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ؛ لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب .

فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى تفسير الآية قول ، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا .

و « فى الجملة » من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك ، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه ، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته ، وطرق الصواب .

ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً ، ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية . كما هو مبسوط فى موضعه .

و « المقصود هنا » التنبيه على مثار الاختلاف فى التفسير ، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التى دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير ما أريد به ، وتأولوه على غير تأويله ، فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق ، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم ، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا فى شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون فى الدليل لا فى المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم يفسرون القرآن بمعان صحيحة ؛ لكن القرآن لا يدل عليها مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق

التفسير ، وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة ، فإن ذلك يدخل فى القسم الأول ، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً ، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسداً .

فصل

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ؛ فما أجمل فى مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط فى موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن ، قال الله تعالى : (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا) وقال تعالى : (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وقال تعالى : (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنة .

والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ؛ لا أنها تتلى كما يتلى ، وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي . قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » ، وهذا الحديث فى المساند والسنن بإسناد جيد .

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التى اختصوا بها ؛ ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ؛ لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين : « مثل عبد الله بن مسعود » قال الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب ، قال أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم

فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحـد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته ، وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منـا إذا تعلم عشر آيات لم يجـاوزهن حـتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ومنهم الحبر البحر « عبد الله بن عباس » ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع ، أنبأنا سفيـان عن الأعمش عن مسـلم عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . ثم رواه عن يحيى بن داود ، عن إسحاق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك . فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هـذه العبارة ، وقد مات ابن مسعود فى سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح ، وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه مـن العلوم بعد ابن مسعود ؟ . وقال الأعمش عن أبي وائـل استخلف علي عبـد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ فى خطبته سورة البقرة ــــ وفى

روايـة سورة النور ــ ففسرهـا تفسيراً لو سمعتـه الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمـن السدي الكبير فى تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عباس ، ولـكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهـل الـكتاب التى أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين مـن كتب أهـل الـكتاب فكان يحدث منها بما فهمه من هذا الحديث مـن الإذن فى ذلك ، ولـكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

« أحدهـا » ما علمنا صحته ممـا بأيدينا مما يشهد له بالصـدق فذاك صحيح .

و « الثاني » ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

و « الثالث » ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا مـن هذا القبيل ، فلا نؤمـن به ولا نـكذبه وتجوز حكايته لما تقـدم ،

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغي فى مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فيقال فى مثل هذا : (قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ؛ فلهذا قال : (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم

لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته ؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ؛ إذ قد يكون الصواب فى الذي تركه أو يحكى الخلاف ويطلقه ، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب أو جاهلا فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبى زور ، والله الموفق للصواب .

فصل

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين «كمجاهد ابن جبر» فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا

أبان بن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، وبه إلى الترمذي ، قال : حدثنا الحسين بن مهدي البصري ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، قال : ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وبه إليه قال حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش ، قال : قال مجاهد : لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبى مليكة ، قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، قال : فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ، ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع فى عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالا وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره ، ومنهم من

بنص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد فى كثير من الأماكن ، فليتفطن اللبيب لذلك ، والله الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن ، أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك .

فأما « تفسير القرآن بمجرد الرأي » فحرام ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الأعلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وبه إلى الترمذي قال : حدثنا عبد بن حميد حدثني حسان بن هلال قال حدثنا سهيل أخو حزم القطعي ، قال حدثنا أبو عمران الجونى عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » قال الترمذي هذا حديث غريب ، وقد

تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبى حزم .

وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أنهم شددوا فى أن يفسر القرآن بغير علم ، وأما الذي روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا فى القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم ، وقد روى عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم ، فمن قال فى القرآن برأيه فقد تكلف مالا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر ؛ لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ والله أعلم . وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين ، فقال : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر ؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، وتكلف مالا علم له به . والله أعلم .

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير مالا علم لهم به ، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق : أي أرض تقلنى وأي سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لم أعلم ؟! : وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمود بن يزيد

عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله : (وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا) فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله مالا أعلم ؟ — منقطع — وقال أبو عبيد أيضاً حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : (وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا) فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر ، وقال عبد بن حميد حدثنا سليمان بن حرب ، قال : حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ : (وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا) فقال ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه .

وهذا كله محمول على أنهما ــ رضي الله عنهما ــ إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ؛ لقوله تعالى : (فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضۡبًا * وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا) .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة ، أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها . إسناده صحيح ، وقال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة ، قال سأل رجل ابن عباس عن : (يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ) فقال

له ابن عباس فما : (يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ) ؟ فقال الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم ، وقال ابن جرير : حدثني يعقوب يعني ابن إبراهيم ، حدثنا ابن علية عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن . فقال أحرج عليك إن كنت مسلما لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني ، وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب إنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن . وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن ، فقال : لا تسألني عن القرآن ، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة ، وقال ابن شوذب : حدثني يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم

ليعظمون القول فى التفسير ، منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع ، وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله قط ، وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال سألت عبيدة السلمانى عن آية من القرآن ، فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد .

وقال أبو عبيد حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار ، عن أبيه ، قال : إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه ، وقال شعبة عن عبد الله بن أبى السفر ، قال : قال الشعبي والله مامن آية إلا وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله . وقال أبو عبيد : حدثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبى زائدة عن الشعبى عن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما

لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ؛ لقوله تعالى : (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) ولما جاء فى الحديث المروي من طرق : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن أبي الزناد ، قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بكتابه الذي هو الهدى والشفاء والنور ، وجعله أحسن الحديث وأحسن القصص ، وجعله الصراط المستقيم لأهل العقل والتدبر ، ولأهل التلاوة والذكر ، ولأهل الاستماع والحال : فالمعتصمون به علما وحالا وتلاوة وسمعاً باطناً وظاهراً هم المسلمون حقاً ، خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم لما انحرف من انحرف من أهل الكلام والحروف إلى كلام غيره ، ومن أهل السماع والصوت إلى سماع غيره كان الانحراف في أربع طوائف متجانسة .

قوم تركوا التعلم منه والنظر فيه والتدبر له إلى كلام غيره ، من كلام الصابئة أو اليهود ، أو ما هو مولد من ذلك أو مجانس له أو نحو ذلك . وهم منحرفة المتكلمة .

وبإزائهم قوم أقاموا حروفه وحفظوه وتلوه من غير فقه فيه ، ولا

فهم لمعانيه ، ولا معرفة للمقالات التى توافقه أو تخالفه ، ووجه بيانه لمسائلها ودلائلها ، وهم ظاهرية القراء والمحدثين ونحوهم . وهذان الصنفان نظير متفقه لا يعرف الحديث ، أو صاحب حديث لا يتفقه فيه . وكذلك متكلم لا يتدبر القرآن أو قارئ لا يعرف من القرآن أنواع الكلام الحق والباطل ، فهاتان فرقتان علميتان .

و « الثالثة » قوم تركوا استماع القلوب له والتنعم به ، وتحرك القلب عن محركاته وذوق حلاوته ، ووجود طعمه إلى سماع أصوات تغيره من شعر أو ملاهي ، من أصوات الصابئة أو النصارى ، أو ما هو مولد عن ذلك ومجانس له أو نحو ذلك ، وهم منحرفة المتصوفة والمتفقرة .

وبإزائهم قوم يصوتون به ويسمعون قراءته من غير تحرك عنه ، ولا وجد فيه ، ولا ذوق لحقائقه ومعانيه ، وهم ظاهرية العباد والمتطوعة والمتقرئة . فهذان الصنفان صاحب حال تحرك الأصوات حاله وليست تلك الحركة والحال عن الصوت بالقرآن ، وصاحب مقال يميز بين الأقوال وينظر فيها وليس ذلك النظر والمقال عن القرآن ، وبإزائهما صاحب عبادة ظاهرة معه استماع ظاهر القرآن وتلاوته ، وصاحب علم ظاهر معه حفظ حروف القرآن أو تفسير حروفه من غريبه وإعرابه ، وأسباب نزوله ونحو ذلك . فهذه الأقسام الأربعة الذين وقفوا مع ظاهر العلم والعمل المشروعين ، والذين خاضوا فى باطن العلم

والعمل ؛ لـكن غير المشروعين جاء التفريط والاعتداء منهم .

ولهـذا وقع بينهم التعادي ، فالأولون يرمون الآخرين بالبدعـة والضلالة ، وقـد صدقوا . والآخرون ينسبون الأولين إلى الجهـالة والعجز ، وقد صدقوا . ثم قد يكون مع بعض الأولين كثير من العلم والعمل المشروع ، كما قـد يكون مع بعض الآخرين كثير من العلم الباطن والحال الـكامن ، كما قد روى الحسن البصري فى مراسيله عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : « العلم علمان : علم فى القلب ، وعلم في اللسان . فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده » وقال يحيى بن سعيد التيمي أبو حيان فيما رواه الخلال في جامعه عن الثوري : « العلماء ثلاثة : فعـالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله وبأمر الله » .

قال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

وأما سؤاله عن : « إجراء القرآن على ظاهره » فإنه إذا آمن بما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تكييف فقد اتبع سبيل المؤمنين .

ولفظ « الظاهر » فى عرف المتأخرين قد صار فيه اشتراك ، فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو من خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضال ؛ بـــل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاتـــه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . فقد قال ابن عباس : ليس فى الدنيـــا مما فى الجنة إلا الأسمـــاء . يعني أن موعود الله في الجنـــة من الذهب ، والحرير ، والخمر ، واللبن ، تخالف حقائقه حقائق هذه الأمور الموجودة فى الدنيا ؛ فالله تعالى أبعد عـــن مشابهة مخلوقاته بما لا يدركه العبـــاد ،

ليست حقيقته كحقيقة شيء منها .

وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة ، لا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يلحد فى أسماء الله تعالى ، ولا يقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة ؛ بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص ، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة ، وأجمع عليه سلف الأمة ، فهذا مصيب فى ذلك وهو الحق .

وهذه جملة لايسع هذا الموضع تفصيلها والله أعلم .

وسئل رحمه الله

عن قوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فاختلاف المفسرين في آية واحدة إن كان بالرأي فكيف النجاة ؟ وإن لم يكن بالرأي فكيف وقع الاختلاف ، والحق لا يكون فى طرفى نقيض أفتونا .؟

فأجاب رحمه الله تعالى : ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين :

« أحدهما » ليس فيه تضاد وتناقض ؛ بل يمكن أن يكون كل منهما حقاً ، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف فى الصفات أو العبادات ، وعامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب ، فإن الله سبحانه إذا ذكر فى القرآن اسماً مثل قوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة يدل بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق ، بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته ، فيقول بعضهم : (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) كتاب الله أو اتباع كتاب الله ،

ويقول الآخر : (ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) هو الإسلام أو دين الإسلام ، ويقول الآخر : (ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) هو السنة والجماعة ، ويقول الآخر : (ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرجاء والحب ، وامتثال المأمور واجتناب المحظور ، أو متابعة الكتاب والسنة ، أو العمل بطاعة الله أو نحو هذه الأسماء والعبارات .

ومعلوم أن المسمى هو واحد وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته ، كما إذا قيل : محمد هو أحمد ، وهو الحاشر ، وهو الماحى ، وهو العاقب ، وهو خاتم المرسلين ، وهو نبي الرحمة ، وهو نبي الملحمة .

وكذلك إذا قيل : القرآن هو الفرقان ، والنور ، والشفاء ، والذكر الحكيم ، والكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت .

وكذلك أسماء الله الحسنى (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وهو (ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ) (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ) (هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ) وأمثال ذلك .

فهو سبحانه واحد صمد ، وأسماؤه الحسنى تدل كلهـا على ذاته ، ويدل هذا من صفاته على مالا يدل عليه الآخر ، فهي متفقة فى الدلالة على الذات متنوعـة فى الدلالة على الصفـات ؛ فالاسم يدل على الذات والصفة المعينة بالمطابقة ، ويدل على أحدهما بطريق التضمن ، وكل اسم يدل على الصفة التى دل عليها بالالتزام ؛ لأنه يدل على الذات المتـكنى به جميع الصفات ، فكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه .

ومنه « قسم آخر » وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التعيين والتمثيل ، لا على سبيل الحـد والحصر ، مثـل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشـار له إلى رغيف وليس المقصود مجرد عينه وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص .

وهذا كما إذا سئلوا عن قوله : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ) أو عن قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) أو عن (ٱلصَّٰلِحِينَ) أو (ٱلظَّٰلِمِينَ) ونحو ذلك مـن الأسماء العامة الجامعة ، التى قد يتعسر أو يتعذر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ؛ إذ لا يكون محتاجا إلى ذلك ، فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدل به على نظائره .

فإن الظالم لنفسه : هو تارك المأمور فاعل المحظور ، و « المقتصد »

هو فاعل الواجب وتارك المحرم . و « السابق » هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه .

فيقول المجيب بحسب حاجة السائل : « الظالم » الذي يفوت الصلاة والذى لا يسبغ الوضوء ، أو الذى لا يتم الأركان ونحو ذلك . و « المقتصد » الذى يصلي في الوقت كما أمر . و « السابق بالخيرات » الذى يصلي الصلاة بواجباتها ومستحباتها ، ويأتى بالنوافل المستحبة معها ، وكذلك يقول مثل هذا فى الزكاة . والصوم ، والحج ، وسائر الواجبات .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله فمن ادعى علمه فهو كاذب .

والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه . كما أخذوا عنه السنة ، وإن كان من الناس من غير السنة فمن الناس من غير بعض معانى القرآن ؛ إذ لم يتمكن من تغيير لفظه .

و (أيضاً) : فقد يخفى على بعض العلماء بعض معانى القرآن ، كما خفي عليه بعض السنة ؛ فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب . والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

عن جندي نسخ بيده صحيح مسلم والبخاري والقرآن ، وهو ناو كتابة الحديث والقرآن العظيم ، وإن سمع بورق أو أقلام اشترى بألف درهم ، وقال : أنا إن شاء الله أكتب فى جميع هذا الورق أحاديث الرسول والقرآن ، ويؤمل آمالا بعيدة ، فهل يأثم أولا ؟ وأي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ؟ الزمخشري ؟ أم القرطبي ؟ أم البغوى ؟ أو غير هؤلاء ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس عليه إثم فيما ينويه ويفعله من كتابة العلوم الشرعية ، فإن كتابة القرآن والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموجودة الثابتة من أعظم القربات والطاعات .

وأما « التفاسير » التى فى أيدي الناس فأصحها « تفسير محمد بن جرير الطبرى » فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كتفسير عبد الرزاق ، وعبد بن حميد . ووكيع وابن أبي قتيبة ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه .

وأما « التفاسير الثلاثة » المسؤول عنهـا فأسلمها مـن البدعة والأحاديث الضعيفة « البغوي » لكنه مختصر مـن « تفسير الثعلبي » وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التى فيـه ، وحذف أشياء غير ذلك .

وأما « الواحدي » فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ؛ لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره . وتفسيره و « تفسير الواحدى البسيط والوسيط والوجيز » فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما « الزمخشري » فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة .

و « أصولهم خمسة » يسمونها التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لكن معنى « التوحيد » عندهم يتضمن نفي الصفات ؛ ولهـذا سمى ابن التومرت أصحـابه الموحدين ، وهذا إنمـا هو إلحاد فى أسمـاء الله وآياته .

ومعنى « العدل » عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ؛ لكن هذا قول أئمتهم ؛ وهؤلاء منصب الزمخشري ، فإن مذهبه مذهب المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم . ومذهب أبى الحسين والمعتزلة الذين على طريقته نوعان : مسايخية وخشبية .

وأما « المنزلة بين المنزلتين » فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً ، فنزلوه بين منزلتين .

و « إنفاذ الوعيد » عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون فى النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقوله الخوارج .

و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف . وهذه الأصول حشا [بها] كتابه بعبارة لا يهتدى أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها ، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين .

و « تفسير القرطبي » خير منه بكثير ، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة ، وأبعد عن البدع ، وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد ؛ لكن يجب العدل بينها ،

وإعطاء كل ذي حق حقه .

و « تفسير ابن عطية » خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ؛ بل هو خير منه بكثير ؛ بل لعله أرجح هذه التفاسير ؛ لـكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

وثم تفاسير أخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزى والماوردى.

وسئل

عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ما المراد بهذه السبعة ؟ وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم وغيرهما هي الأحرف السبعة ، أو واحد منها ؟ وما السبب الذى أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن محيصن وغيرهما من القراءات الشاذة أم لا ؟ وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلاة بها أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

هذه « مسألة كبيرة » قد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقراء وأهل الحديث والتفسير والكلام وشرح الغريب وغيرهم ، حتى صنف فيها التصنيف المفرد ، ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي ، المعروف بأبى شامة ، صاحب « شرح الشاطبية » .

فأما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك ، وذكر ألفاظها ، وسائر الأدلة ، إلى ما لا يتسع له هذا المكان ، ولا يليق بمثل هذا الجواب ؛ ولكن نذكر النكت الجامعة ، التى تنبه على المقصود بالجواب .

فنقول : لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن « الأحرف السبعة » التى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن أنزل عليها ليست هي « قراءات القراء السبعة المشهورة » بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد ، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ؛ إذ هذه الأمصار الخمسة هي التى خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه ، من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وسائر العلوم الدينية ، فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الأمصار ؛ ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التى أنزل عليها القرآن ، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم .

ولهذا قال من قال من أئمة القراء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قراء البصرة فى زمانه فى رأس المائتين .

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التى أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده ؛ بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً، كما قال عبد الله بن مسعود : إنما هو كقول أحدكم أقبل ، وهلم ، وتعال .

وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر ؛ لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض ، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف، إن قلت : غفوراً رحيما ، أو قلت : عزيزاً حكيماً فالله كذلك ، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة » . وهذا كما فى القراءات المشهورة (ربنا باعد وباعد) (إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا) . و (إلا أن يُخافا ألا يقيما) (وإن كان مكرم لتزول . ولتزول منه الجبال) و (بل عجبتَ . وبل عجبتُ) ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبايناً من وجه كقوله : (يخدعون ويخادعون) (ويكذبون ويكذّبون) (ولمستم ، ولامستم) و (حتى يطهرن ، ويطهرن) ونحو ذلك فهذه القراءات التى يتغاير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا ، لا يجوز ترك موجب إحداها لأجل الأخرى ظناً أن ذلك

تعارض ، بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وأما ما اتحد لفظه ومعناه وإنما يتنوع صفة النطق به كالهمزات ، والمدات ، والإمالات ، ونقل الحركات ، والإظهار ، والإدغام ، والاختلاس ، وترقيق اللامات والراءات : أو تغليظها ونحو ذلك مما يسمى القراءات الأصول [1] فهذا أظهر وأبين فى أنه ليس فيه تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى ؛ إذ هذه الصفات المتنوعة فى أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ، ولا يعد ذلك فيما اختلف لفظه واتحد معناه ، أو اختلف معناه من المترادف ونحوه ، ولهذا كان دخول هذا فى حرف واحد من الحروف السبعة التى أنزل القرآن عليها من أولى ما يتنوع فيه اللفظ أو المعنى ، وإن وافق رسم المصحف وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل .

ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبوعين من السلف والأئمة فى أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة فى جميع أمصار المسلمين ؛ بل من ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة أو قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمي ونحوهما ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائى فله أن يقرأ

---

(١) نسخة مما يسمي القراء عامته الأصول .

بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الإجماع والخلاف؛ بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة وأحمد ابن حنبل وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين، وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن إسحق وغيرهم على قراء حمزة والكسائي.

وللعلماء الأئمة فى ذلك من الكلام ماهو معروف عند العلماء؛ ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة أو الإحدى عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك فى الكتب، ويقرؤونه فى الصلاة وخارج الصلاة، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم.

وأما الذي ذكره القاضي عياض ومن نقل من كلامه من الإنكار على ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بالشواذ فى الصلاة في أثناء المائة الرابعة، وجرت له قصة مشهورة فإنما كان ذلك فى القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه.

ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة، ولكن من [لم][1] يكن عالما بها أو لم تثبت عنده كمن يكون فى بلد من بلاد الإسلام بالمغرب أو غيره، ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه، فإن

(١) أضيفت حسب مفهوم السياق.

القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الأول ، كما أن ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنواع الاستفتاحات فى الصلاة ومن أنواع صفة الأذان والإقامة وصفة صلاة الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه ، وأما من علم نوعا ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل عما علمه إلى مالم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من علم ما لم يعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثمانى مثل قراءة ابن مسعود ، وأبي الدرداء رضي الله عنهما (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والانثى) كما قد ثبت ذلك فى الصحيحين . ومثل قراءة عبد الله (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وكقراءته : (إن كانت إلا زقية واحدة) ونحو ذلك . فهذه إذا ثبتت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها فى الصلاة ؟ على قولين للعلماء هما روايتان مشهورتان عن الإمام أحمد ، وروايتان عن مالك .

« إحداها » يجوز ذلك لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرأون بهذه الحروف فى الصلاة .

« والثانية » لا يجوز ذلك ، وهو قول أكثر العلماء ؛ لأن هذه

القراءات لم تثبت متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة ، فإنه قد ثبت فى الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهي التى أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها فى المصاحف ، وكتبها أبو بكر وعمر فى خلافة أبي بكر فى صحف ، أمر زيد بن ثابت بكتابتها ، ثم أمر عثمان فى خلافته بكتابتها فى المصاحف وإرسالها إلى الأمصار ، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة علي وغيره .

وهذا النزاع لا بد أن يبنى على الأصل الذي سأل عنه السائل ، وهو أن القراءات السبعة هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا ؟ فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والائمة أنها حرف من الحروف السبعة ؛ بل يقولون : إن مصحف عثمان هو أحد الحروف السبعة ، وهو متضمن للعرضة الآخرة التى عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل ، والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول. وذهب طوائف من الفقهاء والقراء وأهل الكلام إلى أن هذا المصحف مشتمل على الأحرف السبعة ، وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام ،

كالقاضي أبي بكر الباقلاني وغيره ؛ بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة ، وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف الإمام العثماني وترك ما سواه ، حيث أمر عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان أبو بكر وعمر كتبا القرآن فيها ، ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة إلى كل مصر من أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك .

قال هؤلاء : ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة . ومن نصر قول الأولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره من أن القراءة على الأحرف السبعة ، لم يكن واجبا على الأمة ، وإنما كان جائزاً لهم مرخصا لهم فيه ، وقد جعل إليهم الاختيار فى أي حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصاً ؛ بل مفوضاً إلى اجتهادهم ؛ ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد ، وكذلك مصحف غيره .

وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية فى الرسم ، كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور فمفوض إلى اجتهادهم . قالوا : فكذلك الأحرف السبعة ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك

اجتماعا سائغا ، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن فى ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور .

ومن هؤلاء من يقول بأن الترخيص فى الأحرف السبعة كان فى أول الإسلام ؛ لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم، وهو أرفق بهم أجمعوا على الحرف الذي كان فى العرضة الآخرة . ويقولون : إنه نسخ ماسوى ذلك .

وهولاء يوافق قولهم قول من يقول : إن حروف أبي بن كعب ، وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة .

وأما من قال عن ابن مسعود : أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة وإنما هو كقول أحدكم : أقبل ، وهلم ، وتعال، فاقرأوا كما علمتم أو كما قال .

ثم من جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة قال يجوز ذلك ؛ لأنه من الحروف السبعة التى أنزل القرآن عليها ، ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ : تارة يقول ليس هو من الحروف

السبعة [1] وتارة يقول : هو من الحروف المنسوخة ، وتارة يقول : هو مما انعقد إجماع الصحابة على الإعراض عنـه ، وتارة يقول : لم ينقل إلينـا نقلا يثبت بمثله القرآن . وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين .

ولهذا كان فى المسألة « قول ثالث » ، وهو اختيار جدي أبي البركات أنه إن قرأ بهذه القراءات فى القراءة الواجبة — وهي الفـاتحة عند القدرة عليها — لم تصح صلاته ؛ لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك ، وإن قرأ بهـا فيما لا يجب لم تبطل صلاته ؛ لأنه لم يتيقن أنه أتى فى الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التى أنزل عليها . وهذا القول ينبنى على « أصل » وهو أن ما لم يثبت كونه من الحروف السبعة ، فهل يجب القطع بكونه ليس منها ؟ فالذى عليه جمهور العلماء أنه لا يجب القطع بذلك ، إذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والإثبات قطعياً .

وذهب فريق من أهل الـكلام إلى وجوب القطع بنفيـه ، حتى قطع بعض هؤلاء — كالقاضي أبي بكر — بخطأ الشافعي وغيره ممن أثبت البسملة آية من القرآن فى غير سورة النمل ، لزعمهم أن ما كان من موارد الاجتهـاد فى القرآن فإنه يجب القطع بنفيـه ، والصواب

---

(1) نسخة المنسوخة .

القطع بخطأ هؤلاء ، وأن البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف ، إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجردوه عما ليس منه ، كالتخميس والتعشير وأسماء السور ؛ ولكن مع ذلك لا يقال هي من السورة التى بعدها ، كما أنها ليست من السورة التى قبلها ؛ بل هي كما كتبت آية أنزلها الله في أول كل سورة وإن لم تكن من السورة ، وهذا أعدل الأقوال الثلاثة فى هذه المسألة .

وسواء قيل بالقطع فى النفي أو الإثبات فذلك لايمنع كونها من موارد الاجتهاد التى لا تكفير ولا تفسيق فيها للنافى ولا للمثبت ؛ بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء : إن كل واحد من القولين حق ، وإنها آية من القرآن فى بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين ، وليست آية فى بعض القراءات ؛ وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها بين السورتين .

وأما قول السائل : ما السبب الذى أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية ، لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله ، إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه ؛ بل القراءة سنة متبعة ، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب فى المصحف الإمامي وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحد منها خارجا عن المصحف .

ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون فى بعض المواضع على ياء أو تاء ، ويتنوعون فى بعض ، كما اتفقوا فى قوله تعالى : (وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ) في موضع وتنوعوا في موضعين ، وقد بينا أن القراءتين كالآيتين ، فزيادة القراءات كزيادة الآيات ؛ لكن إذا كان الخط واحداً واللفظ محتملا كان ذلك أخصر فى الرسم .

والاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن ربي قال لي أن قم فى قريش فأنذرهم . فقلت : أي رب ! إذاً يثلغوا رأسي — أي يشدخوا — فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظانا ، فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن اطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق عليك » فأخبر أن كتابه لا يحتاج فى حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ؛ بل يقرؤه فى كل حال كما جاء فى نعت أمته : « أناجيلهم فى صدورهم » بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرأونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب .

وقد ثبت فى الصحيح أنه جمع القرآن كله على عهد النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ، كالأربعة الذين من الأنصار ، وكعبد الله بن عمرو ، فتبين بما ذكرناه أن القراءات المنسوبة إلى نافع

وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التى أنزل القرآن عليها ، وذلك باتفاق علماء السلف والخلف .

وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الاحرف السبعة التى أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين ؛ بل القراءات الثابتة عن أئمة القراء — كالأعمش ويعقوب ، وخلف وأبى جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ونحوهم — هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده ، كما ثبت ذلك .

وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم ، وإنما تنازع الناس من الخلف فى المصحف العثمانى الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون لهم بإحسان ، والأمة بعدهم ، هل هو بما فيه من القراءات السبعة ، وتمام العشرة ، وغير ذلك هل هو حرف من الأحرف السبعة التى أنزل القرآن عليها ؟ أو هو مجموع الأحرف السبعة ، على قولين مشهورين . والأول قول أئمة السلف والعلماء ، والثاني قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم ، وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافا يتضاد فيه المعنى ويتناقض ؛ بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً .

وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم ؛ إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع ، لا إلى الرأي والابتداع .

أما إذا قيل : إن ذلك هي الأحرف السبعة فظاهر ، وكذلك بطريق الأولى إذا قيل : إن ذلك حرف من الأحرف السبعة ، فإنه إذا كان قد سوغ لهم أن يقرؤوه على سبعة أحرف كلها شاف كاف مع تنوع الأحرف فى الرسم ؛ فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك فى الرسم وتنوعه فى اللفظ أولى وأحرى ، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين ، كالتاء والياء ، والفتح والضم ، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين ، ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين ؛ فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي — وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » كما رواه البخاري في صحيحه ، وكان يقرئ القرآن أربعين سنة . قال — حدثنا الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى

يتعلموا ما فيهـا من العـلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعـلم والعمل جميعاً .

ولهذا دخل فى معنى قوله : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » تعليم حروفه ومعانيه جميعاً ؛ بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه ، وذلك هو الذي يزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمـان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمـاناً ، وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان .

وفى الصحيحين عـن حذيفة قال : حدثنـا رسول الله صلى الله عليـه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنـا « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القـرآن » وذكر الحديث بطوله ، ولا تتسع هذه الورقة لذكر ذلك . وإنمـا المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس .

وبلغنا أصحابه عنه الإيمان والقرآن ، حروفه ومعانيه، وذلك مما أوحاه الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ﴾ ، وتجوز القراءة فى الصـلاة وخارجها بالقراءات الثابتة الموافقة لرسم المصحف ، كما ثبتت هذه القراءات ، وليست شاذة حينئذ . والله أعلم .

وسئل أيضا

عن « جمع القراءات السبع » هل هو سنة أم بدعة ؟ وهل جمعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا ؟.

فأجاب : الحمد لله . أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القرآن التى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم وقد أقروا بها سنة . والعارف فى القراءات الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ولا يعرف إلا قراءة واحدة .

وأما جمعها فى الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف فى القراءة . وأما الصحابة (١)

---

(١) بياض بالأصل .

وقال شيخ الإسلام

فصـــــل

في « تحزيب القـرآن » وفى « كم يقرأ » وفى « مقدار الصيـام والقيـام المشروع » . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « أنـكحنى أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد ابنته فيسألهـا عن بعلها فتقول : نعم الرجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنـا كنفاً مذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألقن به فلقيته بعد ، فقـال : كيف تصوم ؟ قلت : كل يوم . قال : متى ــ أو كيف ــ تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صم من كل شهر ثلاثة أيام ، واقرأ القرآن فى كل شهر . قلت : إني أطيق أكـثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام من كل جمعة . قلت : إنى أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً ، قال : قلت إنى أطيق أكثر من ذلك . قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ القرآن فى كل سبع ليال مرة . قال : فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ وذلك أنى كبرت وضعفت » فكان يقرأ على

بعض أهله السبع من القرآن بالنهــار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليــل ؛ فإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم : في ثلاث وفى خمس ، وأكــثرهم على سبع . وفي لفظ : « اقرأ القرآن في شهر ، قلت : إني أجد قوة . قال : فاقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك » رواه بكماله البخاري وهذا لفظه . وروى مسلم الحديث بنحوه واللفظ الآخر مثله . وفي رواية ألم أخــبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة فقلت : نعم يا نبي الله . وفيه قال : « اقرأ القرآن في كل شهر ، قال : قلت يا نبي الله إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى كل عشر ، قال : قلت يا نبي الله إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه في سبع ولا تزد عـلى ذلك . قال : فشددت فشدد علي » وقال لي النبى صــلى الله عليه وسلم : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرك ، قال : فصرت إلى الذي قال النبى صلى الله عليه وسلم » ، وعن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اقرأ القرآن فى كل ثلاث » رواه أحمد وأبو داود .

قلت هذه الرواية نبه عليها البخاري . وقال بعضهم : فى ثلاث ، وهو معنى ما روى عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال : يا رسول الله أقرأ القرآن فى ثــلاث ؟ قال : « نعم » وكان يقرؤه حتى توفي

رواه أحمد من طريق ابن لهيعة . وذكر أن بعضهم قال : فى خمس وأكثرهم على سبع . فالصحيح عندهم فى حديث عبد الله بن عمرو أنه انتهى به النبي صلى الله عليـه وسلم إلى سبع ، كما أنه أمره ابتداء بقراءته فى الشهر . فجعل الحد ما بين الشهر إلى الأسبوع ، وقد روى أنه أمره ابتداء أن يقرأه فى أربعين ، وهـذا فى طرف السعة يناظر التثليث في طرف الاجتهاد .

وأما رواية من روى : « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقه » فلا تنافي رواية التسبيع فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو ، ولا فيه أنه جعل قراءته فى ثلاث دائماً سنة مشروعة ، وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه فى أقل من ثلاث لم يفقه ، ومفهومه مفهوم العدد ، وهو مفهـوم صحيح أن مـن قرأه فى ثلاث فصاعدا فحكمه نقيض ذلك ، والتناقض يكون بالمخالفة ، ولو من بعض الوجوه .

فإذا كان من يقرؤه فى ثلاث أحياناً قد يفقهه حصل مقصود الحديث ولا يلزم إذا شرع فعل ذلك أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مستحبة ؛ ولهذا لم يعلم في الصحابة على عهده مـن دوام على ذلك أعنى على قراءته دائماً فيما دون السبع ، ولهذا كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقرؤه فى كل سبع .

والمقصود بهذا الفصل أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر — وإن كان قد روى ما بين ثلاث إلى أربعين — فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوراً تامة ، لا يحزبون السورة الواحدة ، كما روى أوس بن حذيفة ، قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني مالك في قبة له ، قال : وكان كل ليلة يأتينا بعد العشاء ، يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش . ثم يقول : لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة ، قال : إنه طرأ علي حزبى من القرآن ، فكرهت أن أجيء حتى أتمه .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل واحد . رواه أبو داود وهذا لفظه وأحمد وابن ماجه ، وفي رواية للإمام أحمد قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من (ق) حتى يختم . ورواه الطبرانى

في معجمه فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزب القرآن ؟ فقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزبه ثلاثاً ، وخمساً ، فذكره .

وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو ، فى أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع ؛ ولهذا جعلوه سبعة أحزاب ، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة ، وفيه أنهم حزبوه بالسور ، وهذا معلوم بالتواتر ؛ فإنه قد علم أن أول ما جزئ القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين ، وثلاثين ، وستين . هذه التى تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب فى أثناء السورة ، وأثناء القصة ونحو ذلك ، كان فى زمن الحجاج وما بعده ، وروى أن الحجاج أمر بذلك . ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك .

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق ، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده كان لهم تحزيب آخر : فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون : خمسون آية ، ستون آية . وتارة بالسور لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ولا ذكره أحد فتعين التحزيب بالسور .

فإن قيل : فترتيب سور القرآن ليس هو أمراً واجباً منصوصاً

عليه وإنما هو موكول إلى الناس : ولهذا اختلف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا فى كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد . « إحداهما » يكره لأنه خلاف المصحف العثماني المتفق عليه . و « الثانية » لا يكره كما يلقنه الصبيان ؛ إذ قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

قيل : لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرتباً ، أكثر ما فى الباب أن الترتيب يكون أنواعاً ، كما أنزل القرآن على أحرف ، وعلى هذا فهذا التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب . ويجوز أيضاً أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب ، فإنه ليس فى الحديث تعيين السور .

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن ؛ لوجوه :

« أحدها » أن هذه التحزيبات المحدثة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده ، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه ، فيحصل القارئ فى اليوم الثانى مبتدئاً بمعطوف ، كقوله تعالى : (وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ) وقوله : (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وأمثال ذلك . ويتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض — حتى كلام المتخاطبين — حتى يحصل الابتداء

فى اليوم الثانى بكلام المجيب ، كقوله تعالى : (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) .

ومثل هذه الوقوف لا يسوغ فى المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي ؛ ولهذا لو ألحق بالكلام عطف أو استثناء أو شرط ونحو ذلك بعد طول الفصل بأجنبي لم يسغ باتفاق العلماء ، ولو تأخر القبول عن الإيجاب بمثل ذلك بين المتخاطبين لم يسغ ذلك بلا نزاع ، ومن حكى عن أحمد خلاف ذلك فقد أخطأ ، كما أخطأ من نقل عن ابن عباس فى الأول خلاف ذلك ، وذلك أن المنقول عن أحمد أنه فيما إذا كان المتعاقدان غائبين ، أو أحدهما غائب والآخر حاضر فينقل الإيجاب أحدهما إلى الآخر ، فيقبل فى مجلس البلاغ وهذا جائز ، بخلاف ما إذا كانا حاضرين ، والذي في القرآن نقل كلام حاضرين متجاورين ، فكيف يسوغ أن يفرق هذا التفريق لغير حاجة؟ بخلاف ما إذا فرق فى التلقين لعدم حفظ المتلقن ونحو ذلك .

« الثانى » أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ فى الصلاة بسورة كـ (ق) ونحوها ، وكما كان عمر رضي الله عنه يقرأ « بيونس » و « يوسف » و « النحل » ، ولما قرأ صلى الله عليه وسلم بسورة « المؤمنين » فى الفجر أدركته سعلة فركع فى أثنائها . وقال : « إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد أن أطيلها .فأسمع بكاء الصبي فأخفف لما أعلم من وجد أمه به » .

وأما « القراءة بأواخر السور وأوساطها » فلم يكن غالباً عليهم ؛ ولهذا يتورع فى كراهة ذلك ، وفيه النزاع المشهور في مذهب أحمد وغيره ، ومن أعدل الأقوال قول من قال يكره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً ؛ لئلا يخرج عما مضت به السنة . وعادة السلف من الصحابة والتابعين .

وإذا كان كذلك فمعلوم أن هذا التحزيب والتجزئة فيه مخالفة السنة أعظم مما فى قراءة آخر السورة ووسطها فى الصلاة ، وبكل حال فلا ريب أن التجزئة والتحزيب الموافق لما كان هو الغالب على تلاوتهم أحسن .

و « المقصود » أن التحزيب بالسورة التامة أولى من التحزيب بالتجزئة .

« الثالث » ان التجزئة المحدثة لا سبيل [فيها] إلى التسوية بين حروف الأجزاء ؛ وذلك لأن الحروف في النطق تخالف الحروف فى الخط فى الزيادة والنقصان ، يزيد كل منها على الآخر من وجه دون وجه ، وتختلف الحروف من وجه ، وبيان ذلك بأمور :

« أحدها » أن ألفات الوصل ثابتة في الخط ، وهي في اللفظ تثبت فى القطع وتحذف فى الوصل ، فالعاد إن حسبها انتقض عليه حال القارىء إذا وصل وهو الغالب فيها ، وإن أسقطها انتقض عليه بحال القارىء القاطع ، وبالخط .

« الثانى » أن الحرف المشدد حرفان فى اللفظ ، أولهما ساكن وهذا معروف بالحس واتفاق الناس ، وهما متماثلان فى اللفظ ، وأما في الخط فقد يكونان حرفاً واحداً مثل (إياك) و (إياك) ، وقد يكونان حرفين مختلفين مثل : (ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) و (حينئذ) — و (قد سمع) — فالعاد إن حسب اللفظ فالإدغام إنما يكون فى حال الوصل دون حال القطع ، ويلزمه أن يجعل الأول من جنس الثانى ، وهذا مخالف لهذا الحرف المعاد بها . وإن حسب الخط كان الأمر أعظم اضطراباً ، فإنه يلزمه أن يجعل ذلك تارة حرفاً وتارة حرفين مختلفين ، وهذا وإن كان هو الذي يتهجى فالنطق بخلافه .

« الثالث » أن تقطيع حروف النطق من جنس تقطيع العروضيين ، وأما حروف الخط فيخالف هذا من وجوه كثيرة ، والناس فى العادة إنما يتهجون الحروف مكتوبة لا منطوقة ، وبينهما فرق عظيم .

« الرابع » أن النطق بالحروف ينقسم إلى ترتيل وغير ترتيل ، ومقادير المدات والأصوات من القراء غير منضبطة ، وقد يكون في أحد الحزبين من حروف المد أكثر مما في الآخر فلا يمكن مراعاة التسوية في النطق ، ومراعاة مجرد الخط لا فائدة فيه ؛ فإن ذلك لا يوجب تسوية زمان القراءة .

وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد ، كان ذلك من جنس تجزئته بالسور هو أيضا تقريب ، فإن بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض فى الحروف ، وفى ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض ، والافتتاح بما فتح الله به السورة ، والاختتام بما ختم به ، وتكميل المقصود من كل سورة ما ليس فى ذلك التحزيب . وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي فى ذلك التحزيب ما تقدم التنبيه على بعضها ، فصار راجحاً بهذا الاعتبار .

ومن المعلوم أن طول العبادة وقصرها يتنوع بتنوع المصالح ، فتستحب إطالة القيام تارة وتخفيفه أخرى في الفرض والنفل بحسب الوجوه الشرعية ، من غير أن يكون المشروع هو التسوية بين مقادير ذلك في جميع الأيام فعلم أن التسوية فى مقادير العبادات البدنية فى الظاهر لا اعتبار به إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم من التساوي فى القدر التساوي في الفضل ؛ بل قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، وثبت فى الصحيح أن فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا فى القرآن مثلها ، وثبت فى الصحيح أن آية الكرسي أعظم آية في القرآن ، وأمثال ذلك .

فإذا قرأ القارىء في اليوم الأول البقرة ، وآل عمران ، والنساء

بكمالها ، وفى اليوم الثـانى إلى آخر براءة ، وفى اليوم الثالث إلى آخر النمل : كان ذلك أفضل من أن يقرأ في اليوم الأول إلى قوله : (بليغاً) وفى اليوم الثاني إلى قوله : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ) فعلى هذا إذا قرأه كل شهر كما أمر به النبي صلى الله عليـه وسلم عبد الله بن عمرو أولا عملاً على قياس تحزيب الصحابة ؛ فالسورة الـتى تكون نحو جزء أو أكثر بنحو نصف أو أقل بيسير يجعلها حزبا ، كآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف .

وأما البقرة فقد يقال : يجعلها حزبا وإن كانت بقدر حزبين وثلث ؛ لكن الأشبه أنه يقسمها حزبين للحاجة ؛ لأن التحزيب لابد أن يكون متقـاربا ؛ بحيث يكون الحزب مثل الأجزاء ومثله مرة ودون النصف ، وأما إذا كان مرتين وشيئاً فهذا تضعيف وزيادة .

وعلى هذا فإلى الأعراف سبعة أجزاء ، والأنفال جـــزء ، وبراءة جزء ، فإن هذا أولى من جعلها جزءاً ؛ لأن ذلك يفضى إلى أن يكون نحو الثلث فى ثمانية والذي رجحناه يقتضى أن يكون نحو الثلث في تسعة ، وهذا أقرب إلى العدل . وتحزيب الصحابة أوجب أن يكون الحزب الأول أكثر ، ويكون إلى آخر العنكبوت العشر الثانى سورتين سورتين .

وأما يونس وهود فجـزءان أيضاً أو جزء واحـــد ، لأنهما أول

ذوات (آلر) ، ويكون على هذا الثلث الأول سورة سورة ، والثاني سورتين سورتين ؛ لكن الأول أقرب إلى أن يكون قريب الثلث الأول فى العشر الأول ، فإن الزيادة على الثلث بسورة أقرب من الزيادة بسورتين ، وأيضاً فيكون عشرة أحزاب سورة سورة ، وهذا أشبه بفعل الصحابة ، ويوسف والرعد جزء ، وكذلك إبراهيم والحجر ، وكذلك النحل وسبحان ، وكذلك الكهف ومريم ، وكذلك طه والأنبياء ، وكذلك الحج والمؤمنون ، وكذلك النور والفرقان ، وكذلك ذات (طسٓ) الشعراء والنمل والقصص ، وذات (الٓمٓ) العنكبوت والروم ولقمان والسجدة جزء ، والأحزاب وسبأ وفاطر جزء ، و (يسٓ) و (الصافات) و (صٓ) جزء ، والزمر وغافر و (حمٓ) السجدة جزء ، والخمس البواقى من آل (حمٓ) جزء .

والثلث الأول أشبه بتشابه أوائل السور ، والثاني أشبه بمقدار جزء من تجزئة الحروف وهو المرجح . ثم « القتال » و « الفتح » و « الحجرات » و « قٓ » و « الذاريات » جزء ، ثم الأربعة الأجزاء المعروفة ، وهذا تحزيب مناسب مشابه لتحزيب الصحابة رضي الله عنهم ، وهو مقارب لتحزيب الحروف ، وإحدى عشرة سورة حزب حزب ؛ إذ البقرة كسورتين ؛ فيكون إحدى عشر سورة ، وهي نصيب إحدى عشرة ليلة . والله أعلم .

وسئل رحمه الله

عن جماعة اجتمعوا فى ختمة وهم يقرؤون لعاصم وأبى عمرو ، فإذا وصلوا إلى سورة الضحى لم يهللوا ولم يكبروا إلى آخر الختمة ، ففعلهم ذلك هو الأفضل أم لا ؟ وهل الحديث الذي ورد فى التهليل والتكبير صحيح بالتواتر أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد لله . نعم إذا قرؤوا بغير حرف ابن كثير كان تركهم لذلك هو الأفضل ؛ بل المشروع المسنون ، فإن هؤلاء الأئمة من القراء لم يكونوا يكبرون لا في أوائل السور ولا فى أواخرها .

فإن جاز لقائل أن يقول : إن ابن كثير نقل التكبير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاز لغيره أن يقول : إن هؤلاء نقلوا تركه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ من الممتنع أن تكون قراءة الجمهور التى نقلها أكثر من قراءة ابن كثير قد أضاعوا فيها ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أهل التواتر لا يجوز عليهم كتمان ما تتوفر الهمم والدواعى إلى نقله ، فمن جوز على جماهير القراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأهم بتكبير زائد ، فعصوا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وتركوا ما أمرهم بـه استحق العقوبة البليغة التى تردعه وأمثـاله عن مثل ذلك .

وأبلغ من ذلك البسملة ؛ فإن من القراء من يفصل بهـا ، ومنهم من لا يفصل بها وهي مكـتوبة فى المصاحف ، ثم الذين يقرؤون بحرف من لا يبسمل لا يبسملون ، ولهذا لا ينكر عليهم ترك البسملة إخوانهم من القراء الذين يبسملون ، فكيف ينكر ترك التكبير على من يقرأ قراءة الجمهور ؟ وليس التكبير مكتوبا فى المصاحف وليس هو في القرآن باتفاق المسلمـين . ومن ظن أن التكبير من القرآن فإنـه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

بخلاف البسملة ؛ فإنها من القرآن ، حيث كتبت في مذهب الشافعي وهو مذهب أحمد المنصوص عنه فى غـير موضـع ، وهو مذهب أبى حنيفة عند المحققين من أصحابـه وغيرهم من الأئمـة ؛ لكن مذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما أنهـا من القرآن ، حيث كتبت البسملة ، وليست من السورة . ومذهب مالك ليست من القرآن إلا فى سورة النمل ، وهو قول فى مذهب أبى حنيفة وأحمد .

ومع هذا فالنزاع فيها من مسائل الاجتهـاد ، فمن قال : هي من القـرآن حيث كتبت ، أو قال : ليست هي من القرآن إلا فى سـورة

النمل كان قوله من الأقوال التى ساغ فيها الاجتهاد .

وأما التكبير : فمن قال : إنه من القرآن فإنه ضال باتفاق الأئمة ، والواجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، فكيف مع هذا ينكر على من تركه ؟ ! ومن جعل تارك التكبير مبتدعا أو مخالفاً للسنة أو عاصياً فإنه إلى الكفر أقرب منه إلى الإسلام . والواجب عقوبته ؛ بل إن أصر على ذلك بعد وضوح الحجة وجب قتله .

ولو قدر أن النبي صلى الله علية وسلم أمر بالتكبير لبعض من أقرأه كان غاية ذلك يدل على جوازه ، أو استحبابه ، فإنه لو كان واجباً لما أهمله جمهور القراء ، ولم يتفق أئمة المسلمين على عدم وجوبه ، ولم ينقل أحد من أئمة الدين أن التكبير واجب ، وإنما غاية من يقرأ بحرف ابن كثير أن يقول : إنه مستحب ، وهذا خلاف البسملة ، فإن قراءتها واجبة عند من يجعلها من القرآن ومع هذا فالقراء يسوغون ترك قراءتها لمن لم ير الفصل بها ، فكيف لا يسوغ ترك التكبير لمن ليس داخلاً فى قراءته .

وأما ما يدعيه بعض القراء من التواتر فى جزئيات الأمور فليس هذا موضع تفصيله .

وسئل عمن يقول

عن الإمام مالك أنه قال : من كتب مصحفاً على غير رسم المصحف العثماني فقد أثم ، أو قال : كفر . فهل هذا صحيح ؟ وأكثر المصاحف اليوم على غير المصحف العثماني ، فهل يحل لأحد كتابته على غير المصحف العثماني بشرط ألا يبدل لفظاً ، ولا يغير معنى ، أم لا ؟؟

فأجاب : أما هذا النقل عن مالك في تكفير من فعل ذلك فهو كذب على مالك ، سواء أريد به رسم الخط أو رسم اللفظ ، فإن مالكاً كان يقول عن أهل الشورى إن لكل منهم مصحفاً يخالف رسم مصحف عثمان ، وهم أجل من أن يقال فيهم مثل هذا الكلام ، وهم علي بن أبي طالب ، والزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف مع عثمان .

وأيضاً فلو قرأ رجل بحرف من حروفهم التي تخرج عن مصحف عثماني ففيه روايتان عن مالك وأحمد ، وأكثر العلماء يحتجون بما ثبت من ذلك عنهم ، فكيف يكفر فاعل ذلك ؟! .

وأما اتباع رسم الخط بحيث يكتبه بالكوفى فلا يجب عند أحد من المسلمين ، وكذلك اتباعه فيما كتبه بالواو والألف هــو حسن لفظ رسم خط الصحابة .

وأما تكفير من كتب ألفاظ المصحف بالخط الذي اعتاده فلا أعلم أحداً قال بتكفير من فعل ذلك ؛ لكن متابعة خطهم أحسن ، هكذا نقل عن مالك وغيره والله أعلم .

وسئل

عن قوم يقرؤون القرآن ويلحنون فيه ؛ فأنكر عليهم منكر . فقال قائل منهم : كل لحنة بعشر حسنات ؟!

فأجاب : الحمد لله ، إذا قدروا على تصحيح صححوا ، وإن عجزوا عن ذلك فلا بأس بذلك حسبَ استطاعتهم .

وسئل

عن رجل يتلو القرآن مخافة النسيان ، ورجاء الثواب ، فهل يؤجر على قراءته للدراسة ومخافة النسيان أم لا ؟ وقد ذكر رجل ممن ينسب إلى العلم أن القارئ إذا قرأ للدراسة مخافة النسيان أنه لا يؤجر فهل قوله صحيح أم لا ؟؟

فأجاب : بل إذا قرأ القرآن لله تعالى فإنه يثاب على ذلك بكل حال ، ولو قصد بقراءته أنه يقرؤه لئلا ينساه ، فإن نسيان القرآن من الذنوب ، فإذا قصد بالقرآن أداء الواجب عليه من دوام حفظه للقرآن، واجتناب ما نهى عنه من إهماله حتى ينساه ، فقد قصد طاعة الله ، فكيف لا يثاب .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتاً من صدور الرجال من النعم من عقلها » وقال صلى الله عليه وسلم : « عرضت على سيئات أمتى فرأيت من مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن فينام عنها حتى ينساها » وفي

صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه ، إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » . والله أعلم .

آخر المجلد الثالث عشر

فهرس المجلد الثالث عشر

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
١٢١ ـ ١٢٣	فصل فههنا ثلاثة أشياء (١) الظن الراجح فى نفس المستدل المجتهد (٢) الأدلة التى تعارضت وعلم المستدل بأن التى أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها (٣) أنه قد يكون فى نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلمه المستدل
١٢١ ، ١٢٢	عمدة من أفتى بأن الحائض عليها الوداع وبقطع الخفين ، وأن قليل الحرير وكثيره حرام ، عذرهم ورجوعهم
١٢٣ ـ ١٢٥	تناقض من زعم أنه ليس فى الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ويقولون ما ثم إلا الظن الذى فى نفس المجتهد ، والأمارات لا ضابط لها ، وليس بعضها أقوى من بعض
١٢٤ ـ ١٢٦	إذا فسر الخطأ بالإثم فليس المجتهد بمخطئ لا فى الأصول ولا فى الفروع وإن أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر فالمصيب واحد له أجران
١٢٥	القصد من هجر أهل البدع وعدم قبول شهادتهم
١٢٦	عمدة من فرق بين المجتهد فى الأصول والمجتهد فى الفروع
١٢٦ ـ ١٣٠	عامة المسائل التى تنازع فيها الناس يوجد فيها عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كالنزاع فى أصول المعتزلة الخمسة ، وما قصدوا بذلك ، وما قصد من ناقضهم ، وما فات الطائفتين من العلم بالحقائق فيها
١٢٩ ، ١٣٠	الرد على قول الرازى : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئا خلافا للحشوية .
١٣١	فصل والجهمية والمعتزلة مشتركون فى نفى الصفات ، وابن كلاب ومن تبعه لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل ...
١٣١ ، ١٣٢	قول الجهمية والمعتزلة والكلابية والسالمية وأهل السنة وجمهور العقلاء فى نداء موسى
١٣٢	لم يقل السلف بقدم القرآن ، بعض من أطلق عليه القدم من المتأخرين لم يتصور المراد
١٣٢ ، ١٣٣	إذا خلق المخلوقات رآها ، وإذا خلق الأصوات سمعها
١٣٣	قد يخص بعض المخلوقات بالاستماع والنظر إليه
١٣٣ ـ ١٣٥	هل يقال إن نفس الرؤية والسمع من لوازم ذاته أو يقال إنه بمشيئته

صفحة	الموضوع
١٨٥ ـ ٢٠٣	قول المعطلة يؤول إلى قول فرعون، مذهب أهل الوحدة ، نبذة من أقوالهم ، مدحهم للكفرة وذمهم للأنبياء ، تحريفهم للقرآن الرد عليهم ، قد يوجد منهم من لا يعرف حقيقة قولهم
١٩٩ ، ٢٠٠	الفناء يعبر به عن ثلاثة أمور
٢٠٢ ـ ٢٠٥	معنى الإله ، لا يصلح غير الله للإلهية
٢٠٦ ، ٢٠٧	فصل من أعظم أسباب ضلال المتكلمين مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، قول المتفلسفة فى الرسول ، مافعل الطوسى والتتار بكتب الإسلام
٢٠٨ ـ ٢١٠	فصل أول افتراق فى الإسلام افتراق الخوارج ، أصل مذهبهم
٢٠٨ ، ٢٠٩	تكفيرهم وتكفير أهل البدع للمسلمين مبنى على مقدمتين
٢٠٩ ـ ٢١١	مذهب الشيعة والزيدية
٢١١ ـ ٢٣٠	فصل ثم حدث فى آخر عصر الصحابة القدرية وهم حزبان ، أصل ضلالهم ، وإيضاح مذهبهم
٢١٥ ـ ٢١٩	قد تساعد الشياطين الكفار ، أقوال الناس فى هؤلاء الشياطين المسمين برجال الغيب
٢١٧ ، ٢١٨	اليونسية ارتدوا فى زمن قازان
٢١٨ ـ ٢٢٤	بعض الشيوخ يظن أن ما يؤمر به فى قلبه من الله ويكون ذلك من الشيطان أو من أوليائه ، وقد يظن أن الله يؤيد بالملائكة الكفار
٢٢٤	قول الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة
٢٢٥ ـ ٢٢٧	ما احتج به المجبرة والقدرية النفاة حجة عليهم ، كل طائفة تركت بعض النصوص الجامعة لتلك الأقوال
٢٢٧ ـ ٢٢٩	كل طائفة من أهل البدع تجعل ما تسميه العقليات أعظم من الشرعيات ، ما وافقت فيه الأشعرية الجهم وأتباعه
٢٢٩	صاحب « منازل السائرين » يذكر فى كل باب ثلاث درجات : الأولى توافق الشرع فى الظاهر ، والثانية قد توافقه ، والثالثة تخالفه فى الأغلب

صفحة الموضوع

٢٧٠ ـ ٣١٤ « الإكليل في المتشابه والتأويل »

صفحة	الموضوع
	• وهى ... مثار الفتنة بين من نفى التأويل وبين من أثبته من أهل البدع
٢٨٩ ، ٢٩٠	الحقائق الغائبة لا تعلم بمجرد الكلام إلا أن يكون المخاطب قد تصورها أو تصور نظيرها
٢٩١ – ٢٩٤	اشتقاق التأويل
٢٩٤– ٣٠٥	فصل وأما إدخال أسماء الله وصفاته فى المتشابه ، أو اعتقاد أنه هو المتشابه : فهو باطل من وجهين (١) منع أن يكون من المتشابه ، ما يرد به على من أثبت شيئا ونفى شيئا بالعقل من الأسماء أو الصفات ، التأويل المردود
٣٠٤ ، ٣٠٥	استعمل أهل البدع ألفاظا مجملة ونفوا مدلولها مثل «متحيز» و«محدود» و « جسم » و « مركب » السبب الذى ألجأ أهل البدع إلى النفى والتعطيل ، الصواب ما عليه أئمة الهدى ...
٣٠٦ – ٣١٣	الوجه الثانى أنه إذا قيل الصفات من المتشابه أو فيها ما هو من المتشابه : فالذى نفى علم تأويله لا نفى علم معناه
٣٠٧ ، ٣٠٨	**السلف فسروا آيات الصفات وتعلموا من النبى التفسير**
٣٠٨ ، ٣٠٩	إذا سئل الأئمة عن شىء من الصفات لم ينفوا المعنى وإنما ينفون العلم بالكيفية
٣٠٩ ، ٣١٠	من ظن أن قول مالك الاستواء معلوم أى معلوم وروده فى القرآن فهو جاهل
٣١١ ، ٣١٢	ما فعل الصحابة بمن اتبع المتشابه

٣١٤ – ٣٢٨ « إقسام القرآن »

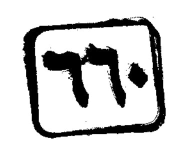
صفحة	الموضوع
٣١٤	فصل فى إقسام القرآن ، يقسم تعالى بنفسه أو بآياته ، إقسامه ببعض المخلوقات المشهودة دليل على أنها من أعظم آياته
٣١٥	قسمه : إما على جملة خبرية أو طلبية ، يراد بالقسم على الأمور الغائبة أو الخفية توكيدها وتحقيقها
٣١٥ ، ٣١٦	قد يذكر جواب القسم وقد يحذف كما قد يحذف جواب لو ، أمثلة ذلك
٣١٦ – ٣١٨	القسم بالتين والزيتون ، وجوابه المذكور

صفحة	الموضوع

٣٢٩ ـ ٣٧٦ « مقدمة التفسير »

صفحة	الموضوع





ردمك : ٩٩٦٠-٧٧٠-٢٠-٦ (مجموعة)
٩٩٦٠-٧٧٠-٣٣-٨ (ج ١٣)

١١٠٠/ي ٣ -٣ - ج١٣) (٦) (١) (٠)